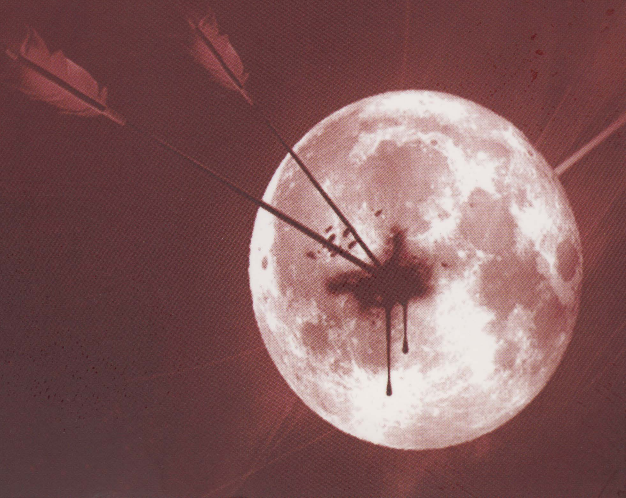
ومضات من وحي

عاشوراء

بقلم العلّامة الشهيد

السيّد أحمد السيّد علوي الغريفي قدس سره



ومضاتٌ من وحيّ عاشوراء

بقلم

العلّامة الشهيد السيّد أحمد السيّد علوي الغريفي قدس سره

إعداد:

لجنة الغريفي الثقافيّة

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

المحتويات

٥) استراتيجيّة التحرك السياسيّ

٦) القائد بمواقفه

٧) تبليغ الدعوة

٨) دور المسجد الرياديّ

٩) معطيات الثورة الحسينيّة

(١)

ما ضاع حقّ وراءه مطالب

الحقوق حيّة بشرط المطالبة

ليس من شكّ في أنّ الحقوق تبقى حيّةً ما دام أصحابها يطالبون بها، وما داموا متمسّكين بها، كما أنّ التعدّي على حقوق الغير أمر ترفضه الشرائع، والأنظمة الاجتماعيّة على اختلافها، ولذلك فإنّهم أباحوا لصاحب الحقّ في أنْ يطالب بحقّه في حالة تعرضه للاعتداء، كلّ هذا في الحقوق المدنيّة، أمّا في غيرها من الحقوق الأخرى كالحقوق السياسيّة، فإنّ هناك عدّة طرق يسلكها المغدور حقه في سبيل الحصول عليها والمطالبة بها.

وتمتاز هذه الطرق بأنّها تتخذ طابع العنف المتمثّل في المعارضة الكلاميّة أولاً، والتي بدورها تهيّئ المجال لظهور الأحزاب السياسيّة، والقيام بالمظاهرات، والإضرابات لدعم هذه المطالب الشعبيّة والتأكيد عليها حتى ترضخ السلطة القائمة، وتستجيب لمطالب الأمّة، وهذا ما يحصل عادة في الدول ذات الطابع الديمقراطي والتي تبيح قوانينها حقّ التظاهر، وإبداء الرأيّ المعارض، وتكوين الأحزاب، وأمّا في غيرها من الدول ذات الطابع الاستبداديّ، فإنّ المعارضة بطبيعة الحال لا تتمكّن من الإعراب عن وجهة نظرها بصورة علنيّة، لأنّ ذلك سوف يعرّضها إلى نقمة السلطة الحاكمة وبالتالي تصفيتها، لذلك تضطّر للّجوء للعمل السريّ، وتتّخذ العنف والثورة طريقًا للوصول إلى أهدافها.

كلّ هذا إذا لم يكن لقادة المعارضة ثقل سياسيّ، ومكانة اجتماعيّة تفرضها على النظام لمراعاة الشعور العام للأمّة بعدم المساس بها، حينئذٍ تلجأ السلطة للمراوغة، ومحاولة استرضاء الزعماء السياسيين البارزين في محاولة للتخفيف من حدّة التوتر، وللخروج من العزلة التي فُرضت على النظام إزاء تنكّره لمطالب الأمّة، وتعدّيه على الحقوق الأساسيّة لها.

الخلافة حقّ خاص

ولعلّ من أهم القضايا التي تثير الشعور العام للأمّة والمجتمع هي وصول فئة بعيدة عن مبادئ الأمّة، وقيمها إلى المركز القياديّ للدولة، فذلك يثير الشعور بالاستنكار، ويدفع المؤمنين أصحاب المبادئ والقيم الثابتة للمجتمع إلى الاعتراض في محاولة لإعادة الحقّ إلى نصابه.

وفي مجال سياسة الحكم، فقد اعتبر الإسلام نظام الإمامة هو النظام الذي يجب تطبيقه، هذا النظام القائم على أساس أنّ الإمام يستمدّ شرعيّته من النّص عليه وليس من قِبل الأمّة، فإنّ الإمامة منصب إلهيّ خطير، ولا يمكن أنْ يرجع أمر اختيار وتعيين الإمام إلى رأيّ النّاس، وذلك لما يتحمّله الإمام عليه السلام من مسؤولية مهمّة متعدّدة الجوانب، منها ما يتعلق ببيان الأحكام وتطبيقها على النّاس، ومراقبة تنفيذها، والإشراف على إقرار العدالة بين الجميع بنصب الحكّام، والولاة، والقضاة، وإقامة الحدود، ولأجل ضمان وصول الحقوق إلى أصحابها، وتطبيق مبادئ العدالة الاجتماعيّة بين جميع الأفراد، وحفاظًا على سلامة التشريع من التحريف والتزييف، وبُعدًا عن الميول

والدوافع الذاتيّة للفرد كان النّص على الإمام من قبل النّبيّ ﷺ أمرًا تقتضيه وظيفة الدعوة الإسلاميّة، ومهمة الرسالة المحمديّة.

وقد صدع النّبيّ ﷺ بهذا الأمر استجابة لأمر الله له في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1].

من هذا نفهم أنّ مسألة الإمامة والخلافة حقّ خاص لجماعة معيّنة اختيرت من قبل الله تعالى، وبنصّ النّبيّ محمدٍ ﷺ لتولّي هذا المنصب الربّاني الخطير، ومن هنا كان التعدّي على هذا الحقّ والتنكّر له خيانة عظمى بحقّ الرسالة الإسلاميّة، وبحقّ الأمّة الإسلاميّة التي رضيت بالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولاً، وأنّ ما جاء به هو الحقّ من عند الله لا يعتريه شكّ ولا ارتياب، لأنّه ﷺ لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلّا وحيٌ يُوحى، فهم بحكم إسلامهم ملزمون باتّباع أمره، واجتناب نهيه لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2].

ومن هنا فقد وقفت الأمّة في وجه من تصدّى للإمام الشرعيّ وخرج شاقًّا عصا المسلمين في حرب الجمل، وصفين، والنهروان، لأنّ طاعة الإمام عليه السلام من طاعة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3]، إذ أنّ أيّ محاولة لمقاومة السلطة الشرعيّة، والخروج عليها تعتبر في حكم الإسلام خروجًا عن

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) الحشر: ٧.
(٣) النساء: ٥٩.

الدّين، وتعدّيًا صارخًا على صاحب الحقّ الشرعيّ الذي هو الإمام، فيجب على الأمّة مقاومته حتى يفيء إلى أمر الله.

الاستراتيجيّة المدروسة

وأمّا في حالة تغلّب الطرف المعتدّي، وتمكّنه من الغلبة والهيمنة، فإنّ الأمّة لا تبقى مكتوفة الأيدي، بل عليها أنْ تقاوم هذا المنكر بكلّ ما أوتيت من قوة ما دامت قادرة على استخدامها، لأنّ بقاء هذا المنكر يقوّض دعائم المجتمع الإسلاميّ، ويضربه في الصميم، كما أنّ الأمر إذا اقتضى الهدنة والسكوت، فإنّ ذلك لا يعني اعترافًا بالأمر الواقع، وإقرارًا لشرعيّة النظام الغاصب كما كان الحال مع الإمام الحسن عليه السلام، حيث اضطرته الظروف العامة إلى عقد الصلح مع معاوية لمصالح اقتضتها الظروف السياسيّة آنذاك، ومن هنا تحوّلت المعارضة إلى سلوك خطّ تكتيكيّ معيّن، وهو محاولة إفساح المجال لهؤلاء المتسلّطين من ممارسة دورهم؛ كي تظهر للمجتمع حقيقتهم، وتتبيّن للنّاس نواياهم وبالتالي يُدرك المجتمع عدم قابليّة هؤلاء لقيادة الأمّة، وأنّ استمرارهم، في الحكم سوف يهدّد المبادئ والأهداف التي تسعى الأمّة إلى ترسيخها في نفوس النّاس، وهنا يكون السكوت عن هذا المنكر جريمة لا تُغتفر، ويكون من واجب الأمّة كلّ الأمّةِ أنْ تعمل على الإطاحة بهذه الزمرة المعتدية، وتأليب النّاس ضدّها كما فعل الصحابيّ الجليل حجر بن عدي وأصحابه، وعمرو بن الحمق الخزاعيّ، ورشيد الهجريّ، وغيرهم ممّن تصدّوا لمقاومة الطغاة، وكانت نتيجة ذلك استشهادهم في سبيل المبدأ، والعقيدة.

وفي حالة عدم تمكن الأمّة من التظاهر بالمعارضة العلنيّة، والقيام بالأعمال الثوريّة نتيجة للمناعة العسكريّة التي يتحصّن بها رجال النظام الغاصب، فإنّ العمل يتجمّد لفترة يكون فيها مستعدًا حينما تحين الفرصة المناسبة، وتتحسّن الظروف الملائمة للقيام بالثورة، واسترداد الحقّ السليب، وإعادته إلى أصحابه الشرعيين كما فعل الإمام الحسينعليه السلام مع أهل الكوفة الذين كتبوا إليه في حياة معاوية بن أبي سفيان يعرضون عليه البيعة والثورة على معاوية، فكتبعليه السلام إليهم يقول: (**أمّا أخي، فإنّي أرجو أنْ يكون الله قد وفّقه وسدّده، وأمّا أنا فليس رأيي اليوم ذاك، فألصقوا رحمكم الله بالأرض، وأكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنّة ما دام معاوية حيًّا، فإنْ يحدث الله به حدثًا وأنا حيّ كتبت إليكم برأيي والسلام**)[1].

فالإمام الحسينعليه السلام في هذه الرسالة لم يتنازل عن حقّه، بل ما زال متمسّكًا به، إلّا أنّ الظرف حينذاك لم يكن يسمح له بالقيام بحركة ثوريّة، بل كان من الأفضل انتظار الفرصة المؤاتية، ذلك لأنّ على القائد الحكيم أنْ يختار الوقت المناسب للانتفاضة والحركة، حتى تُؤدّي الحركة دورها، وتُؤتي ثمارها، ولعلّ من أهم الظروف التي ينتظرها الإمام الحسينعليه السلام هي:

١- استغلال ردّة الفعل العنيفة التي سوف تواجهها الأمّة بعد تولّي يزيد بن معاوية خلفًا لأبيه مقاليد السلطة، فإنّ ذلك يمثّل صدمة عنيفة لم تكن الأمّة تتوقعها وبالتالي تكون الأمّة مهيّأة نفسيًّا للتضامن، والتعاطف مع الحركة القادمة.

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٢٢، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر والدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، منشورات الشريف المرتضى.

٢- الالتزام بالعهود والمواثيق المبرمة بين معاوية من جهة والإمام الحسن وأخيه الإمام الحسين عليهما السلام من جهة أخرى، حيث يعني تولّي يزيد مقاليد الحكم من بعد أبيه نقضًا لتلك العهود، ممّا يعطي أيّ حركة يقوم بها الإمام عليه السلام وأنصاره تبريرًا سياسيًّا ودينيًّا في أوساط المجتمعات الإسلاميّة.

٣- توقّع ازدياد النقمة الشعبيّة، وتزايد السخط العام على النظام الأمويّ، ممّا يدعو قادة المسلمين إلى المبادرة إلى الإمام الحسين عليه السلام باعتباره الشخصيّة التي هي مطمح الأنظار والطلب من قيادة الثورة واستعدادهم لمبايعته، ممّا يعطي الحركة بُعدًا جماهيريًّا، وصفة شعبيّة أكثر منها حركة فرديّة تطالب بالحكم فقط.

وهذا ما توقّعه الإمام الحسين عليه السلام، فإنّ الأمّة أصيبت بخيبة أمل كبيرة حينما شاعت أخبار عزم معاوية على إسناد البيعة لابنه يزيد من بعده، ومحاولة إكراه الصحابة، وغيرهم من قادة المسلمين على الاستجابة لهذه الرغبة، فأدّى إلى ازدياد التذمر، والنفور من هذا الوضع السيئ الذي يحاول تكريس إمامة المسلمين في البيت الأمويّ، ممّا يُعدّ كلّ هذا خروجًا على المألوف في نظام الحكم الذي يريده المسلمون مستمدًّا شرعيّته من الكتاب والسنّة، وقد أبدى الكثير من الصحابة استياءهم الشديد لهذا التصرف اللامشروع.

ويمضي معاوية في إسناد ولاية العهد لابنه يزيد دون التفات لما أثاره ذلك الاختيار من ردّة فعل عاصفة، وكان ذلك أيضًا نقضًا لمعاهدة

الصلح التي وقّعها معاوية مع الإمام الحسنعليه السلام والتي التزم معاوية بموجبها على أنْ يترك الأمر من بعده للإمام الحسن أو لأخيه الإمام الحسينعليه السلام، مما دعا شيعة العراق إلى إرسال الكتب والرسل إلى الإمام الحسينعليه السلام يطالبونه بالقدوم واستعدادهم لمبايعته، لأنّهم وجدوا في تنكّر معاوية للعهود المدوّنة فرصتهم الثمينة، لتجديد ولاءهم للبيت النبويّ، واستعدادهم للتضحية في سبيل استرجاع حقّ أهل البيتعليهم السلام في الإمامة.

ولقد أظهر الإمام الحسينعليه السلام تمسّكه بهذا الحقّ وعدم التفريط به، وقد تمثّل ذلك في مناسبات عديدة كان من أهمها رفضه لبيعة يزيد حينما استدعاه والي المدينة وعرض عليه أمر تولّي يزيد، وطلب البيعة له حيث قال له الإمام: (**أيُّها الأميرُ إنّا أهلُ بيت النّبوة، ومعدنُ الرسالة، ومختلفُ الملائكة، ومحلُّ الرحمة وبنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**)[1].

إنّ هذا الموقف الصريح من الإمام الحسينعليه السلام لرفض بيعة يزيد يؤكّد أنّ الإمام الحسينعليه السلام ما زال متمسّكًا بحقّه في الخلافة، وأنّه لم يكن ليتنازل عنها حيث إنّ الإمامة منصب إلهيّ اختاره الله إليها، ونصّ عليه بذلك جدّه المصطفىصلى الله عليه وآله في نصوص كثيرة، فكيف له أنْ يتخلّى عنها خصوصًا وأنّ الأمر لم يعد يحتمل السكوت، لأنّ الخطب قد اشتد، فلم يقتصر الحال على أنْ تكون ولاية معاوية غير المشروعة أمرًا مؤقّتًا

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/٣٢٥، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.

كما تصوّره المسلمون، وآثروا السكوت عنه حقناً للدماء، وإسكاتًا للفتنة، ولم يكتفِ بذلك، بل نصّب من بعده ابنه يزيد المعروف لدى عامة المسلمين بسلوكه المنحرف وأفعاله المنكرة، فإنّ السكوت ولزوم الصمت على هذا المنكر يُعدُّ جريمة في حقّ الإسلام، لذلك كان الحسين عليه السلام عند وعده الذي أعطاه لشيعته من أهل الكوفة من التصميم على المطالبة بحقّه المغصوب.

(٢)
ملاحقة الثائرين[1]

الحسين عليه السلام يخطّط للخروج

حينما يزداد الظلم من قبل السلطات الغاشمة المستبدة، فإنّ المناضلين يكونون تحت رقابة هذه السلطة لتحديد نشاطهم والقضاء على أيّ معارضة منهم، لذلك قد تضطر ظروف النضال أنْ يترك هؤلاء الثوّار أوطانهم حفاظًا على حياتهم، وفرارًا من جور الحاكمين وطغيانهم، أو بحثًا عن مكان آمن يتمكنون فيه من ممارسة نشاطهم ويجدون الأرضية الصالحة لمواصلة نضالهم، أو يحصلون على الدعم والمساندة من قبل المؤمنين برسالتهم وأتباعهم ممّا يعطي الحركة المقاومَة بُعدًا جديدًا وسندًا متينًا، وقد يكون الدافع لترك الوطن والتغرّب عنه وجود المجال الواسع لانتشار الثورة، واتساع النقمة على المتسلطين، أو الحصول على مواقع يصعب على النظام الحاكم الوصول إليها إمّا لمناعتها، وإمّا لكونها موقعًا ذا حساسيّة خاصة تحرج السلطات لو حاولت تتبع الثائرين فيها.

ويبدو أنّ شيئًا من هذه العوامل كان يدور في تفكير الإمام الحسين عليه السلام وهو يصمّم على الخروج من المدينة إلى مكة، وهذا ممّا يظهر لنا من تصريحاته عليه السلام عن أسباب خروجه من المدينة، فهو يقول مخاطبًا ابن

(١) الثاني من محرم الحرام لسنة ١٤٠٢هـ/ بحث عن الإمام الحسين عليه السلام

عباس: **يا بن عباس، ما تقولُ في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله ﷺ من داره، وقراره وحرم رسوله ﷺ، ومجاورة قبره ومسجده، وموضع مهاجره، فتركوه خائفًا مرعوبًا لا يستقرُّ في قرار، ولا يأوي في موطن، يريدون في ذلك قتله، وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله، ولا اتخذ من دونه وليًّا، ولم يتغيّر عمّا كان عليه رسول الله ﷺ**[1].

فمن هذا يظهر أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد آثر الخروج من المدينة حفاظًا على حياته المهدّدة بالخطر، خصوصًا وأنّ قادة النظام كانوا مصمّمين على إسكات صوت المعارضة بكلّ وسيلة فلم يجدْ الإمام بُدًّا من أنْ يترك هذا البلد، ليلجأ إلى بلد آخر أكثر أمنًا واطمئنانًا.

الخروج رفضٌ للنظام

وفي يقيني أنّ تصميم الإمام عليه السلام على الخروج من المدينة هو في نفس الوقت رفضٌ للنظام الحاكم، وعدم الاعتراف بشرعيته، وإلّا فإنّه بمقدوره لو لم يكن لديه أهداف وغايات بعيدة تتعارض مع الوضع القائم أنْ يُسالم، ويُهادن، ويقبل بمشورة بعض الصحابة بالعودة والبقاء في المدينة مع أنْ يزيد قد ضمن للإمام الحسين عليه السلام كلّ ما يريد في مقابل أنْ يبايع له كما جاء ذلك في كتاب من يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن العباس يقول فيه: **(وأمّا الحسين، فقد أحببت الأعذار إليكم أهل البيت ممّا كان منه، وقد بلغني أنّ رجالًا من شيعته من أهل العراق يكاتبونه، ويكاتبهم، ويمنّونه الخلافة ويمنّيهم الإمرة، إلى أنْ يقول: مخاطبًا ابن عباس،**

---

(١) كتاب الفتوح٥/ ٢٤،أحمد بن أعثم الكوفي، الطبعة الأولى١٤١١هـ، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

وأنت زعيم أهل بيتك، وسيّد بلادك، فالقه، فاردده عن السعي في الفتنة، فإنّ قبل منك وأناب، فله عندي الأمان والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه، وإنْ طلب الزيادة، فاضمن له ما أراك الله)[١].

فأنت ترى أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو لم يكن لديه الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه لما كان يتجشّم أتعاب السفر، ويخاطر بنفسه وعائلته، إلّا أنّ هدفه واضح وغايته معروفة، إنّها المطالبة بحقّه، والتصميم على ارتجاعه مهما كلّفه ذلك من تضحيات، فهو يقول في جوابه لابن عمر الذي دعاه إلى البقاء في المدينة، ولزوم الصمت: **(هيهات يا بن عمر! إنّ القوم لا يتركوني، وإنْ أصابوني، وإنْ لم يصيبوني، فلا يزالون حتى أُبايع وأنا كاره أو يقتلوني)**[٢].

مغزى الخروج إلى مكة

ويختار الإمام الحسين عليه السلام مكة مكانًا لهجرته، فهي تُعيد إلى الأذهان هجرة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله حينما ألجأته الظروف الصعبة التي كانت تحيط بدعوته في مكة، وتآمر المشركين على تدبير اغتياله، فقرّر الهجرة إلى المدينة لتكون مكانًا يأوي إليه من بطش المشركين، ويفتح للدعوة مجالًا أرحب؛ كي تنتشر، وتُوسّع من أرضيّتها، وتكتسب القوّة والمنعة بفضل ازدياد الأتباع والمريدين، وتكون مركزًا يعطي الدعوة الإسلاميّة أهمية وشأنًا يُهدّد المشركين من أهل مكة.

---

(١) مواقف الشيعة١/ ٢٠١، الأحمدي الميانجي، الطبعة الأولى، رجب ١٤١٦هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران.

(٢) كتاب الفتوح٥/ ٢٠٥، أحمد بن أعثم الكوفي، الطبعة الأولى١٤١١هـ، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

وهكذا كانت وأصبحت طيبة[1] مدينة الرسول ﷺ عاصمة للدولة الإسلاميّة الناشئة الفتية، وقلعة حصينة للمؤمنين بالرسالة المحمديّة، ومصدرًا يشعّ بالنور والهداية لأطراف الجزيرة العربية والتي أقبلت على الإسلام تدخله أفواجًا - بعد أنْ تحقّق على يد الرسول الأعظم ﷺ، وأصحابه الميامين - بنصر الله والفتح.

وتنعكس القضيّة في هذا اليوم، يوم أنْ اضطر الإمام الحسين عليه السلام لمغادرتها إذ تصبح مكانًا لا يحصل فيه الأمّان والاستقرار، وتتهدّد حياة العديد من الصحابة الذين رفضوا تأييد النظام ومبايعة يزيد ممّا اضطره إلى مغادرتها إلى حيث الأمّان في رحاب بيت الله الحرام، والذي هو: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ❖ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وكان الإمام الحسين عليه السلام كغيره من الصحابة يأمل أنْ يجد الملجأ الآمن في جوار بيت الله الحرام، وهذا ما صرّح به لوالي مكّة الذي استفسر عن سبب مجيئه إلى مكة حيث أجابه قائلًا: (**عائذًا بالله وبهذا البيت**)[3].

---

(١) فقد أبدلت كلمة (يثرب) بهذه الكلمة (أيّ طيبة) ذلك، لأن النبي ﷺ غيّر اسمها من يثرب (وهي مأخوذة من التثريب وهو الفساد) إلى اسم طيبة.

(٢) آل عمران: ٩٦-٩٧.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢/٢١٢، الشيخ باقر شريف القرشي، الطبعة الأولى١٢٩٥، ١٩٧٥م، مطبعة الآداب، النجف الأشرف- العراق.

مضامين الهجرة

وهكذا تكون الهجرة إحدى مراحل النضال التي سلكها الإمام الحسين عليه السلام، ليحقّق لنفسه منها الأمان والاستقرار، وليجد فيها الأرضيّة الصالحة التي يمكنه عن طريقها أنْ يظهر مقاومته ومعارضته، لذلك فإنّه ما إنْ وصل إلى مكة حتى كان موضع احتفاء المسلمين والتفافهم حوله، فوجدها الإمام الحسين عليه السلام فرصته كي يوضح لهم حقيقة موقفه من الوضع القائم، ويثير في نفوسهم السخط على الحاكم الجائر، ليمهّد الطريق لما هو عازم عليه من مقاومة النظام الغاصب، ومجابهته بعد أنْ يجد الأعوان المساندين لفكرته، والمستعدين للتضحية في سبيله، وقد بقي طيلة هذه الفترة في مكّة يختلف إليه النّاس، ويدعونه إلى القيام في وجه الطاغية، ويعرضون عليه الوقوف إلى جانبه كما تدلّ على ذلك كتب أهل الكوفة التي كانت تصله باستمرار، وتلحّ عليه بالقدوم إليهم، وكانت هذه الرسائل تشير إلى الاستياء العام من حكم الأمويين، والتذمّر الذي يسود المناطق الإسلاميّة آنذاك ممّا يعكس الوضع السياسيّ المتأزم الذي كانت تعيشه الأمّة الإسلاميّة في أعقاب وفاة معاوية، وصيرورة الحكم في يد ولده يزيد، وهو أمر اعتبرته جماهير المسلمين سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام، لا يمكن السكوت عنها أو تبريرها، لذلك كانت المقاومة لهذا الحاكم الجديد موضع اتفاق بين الشخصيات البارزة من أقطاب المعارضة، وإنْ اختلفوا في الكيفية التي ينبغي اتباعها في إظهار هذه النقمة، ولم يكن غير الحسين عليه السلام شخصًا تتّجه إليه الأنظار، وتجتمع عليه القلوب، لذلك كانت تنتظره ليأخذ بزمام المبادرة، وهذا ما أعربت عنه الرسائل التي تلّقاها الإمام

الحسين عليه السلام من المسلمين، فقد كتب إليه جماعة من أهل الكوفة قائلين له: من سليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مُظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة: (**أمّا بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبار العنيد – معاوية – الذي انتزى على هذه الأمّة، فابتزها أمرها، واغتصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضىً منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدًا له كما بعدت ثمود، إنّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أنْ يجمعنا بك على الحقّ**)[1].

فقد كشفت هذه الرسالة، وكثير من أمثالها عن النفسيّة العامة للأمّة تجاه الحكم الأمويّ، وأنّه حكم قائم على التعسّف والإرهاب من دون سند شرعيّ، وعن الممارسات اللاشرعيّة التي كان يمارسها معاوية من نهب أموال المسلمين، واستعمالها لتحقيق أغراضه الدنيئة، وأنّ الأمّة لم تكن لتسكت عن هذه التصرفات لولا أمر قادتها بانتظار الفرصة وقد حانت، فما كان من المسلمين إلّا أنْ سارعوا معلنين ولاءهم، وطاعتهم إلى الإمام الشرعيّ الذي يأملونه، ويرجونه وهو (**ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي لم يكن على وجه الأرض أحد يساميه ولا يساويه) كما يقول ابن كثير في تاريخه**[2].

(١) روضة الواعظين، ص١٧٢، منشورات الشريف الرضي، قم- إيران.

(٢) البداية والنهاية٨/١٦٢، ابن كثير، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، تحقيق وتعليق وتدقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

رسالة الإستنهاض

ولكي يؤكّد الإمام الحسينعليه السلام موقفه من قضية الخلافة، وأنّها حقّ ثابت له بادر إلى الكتابة إلى جمع من الشخصيّات البارزة من أهل البصرة يعرض فيها استعداده للقيام بأعباء المسؤوليّة وجاء في هذه الرسالة: أمّا بعد: (**فإنّ الله اصطفى محمدًاصلى الله عليه وآله على خلقه، وأكرمهُ بنبوّته، واختارهُ لرسالته، ثُمّ قبضهُ الله إليه وقد نصح لعباده، وبلّغ ما أرسل بهصلى الله عليه وآله، وكنّا أهلهُ، وأولياءهُ، وأوصياءهُ وورثتهُ، وأحقّ النّاس بمقامه في النّاس، فاستأثر علينا قومُنا بذلك، فرضينا، وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحنُ نعلم أنّا أحقُّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممن تولاه...، وقد بعثت رسُولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه، فإنّ السنّة قد أُميتت، وأنّ البدعة قد أُحييت، فإنْ تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم إلى سبيل الرشاد**)[1].

وقد أوضح الإمام الحسينعليه السلام في هذه الرسالة الموجهة إلى أهل البصرة تمسكه بالحقّ الثابت له، وأنّ سكوت الأئمة من أهل البيتعليهم السلام عن المطالبة بهذا الحقّ ممّن اغتصبوه لم يكن اعترافًا لهم بالشرعيّة، ولا تنازلًا منهم عن الوظيفة الإلهيّة، وإنّما كان السبب هو رعاية حال الأمّة الإسلاميّة، وإبعادها عن مساوئ الفرقة، وتجنيبها مضرّة الفتنة والشقاق، وهو موقف سبق لأبيه الإمام أمير المؤمنين عليّعليه السلام أنْ

(١) تاريخ الطبري٤/٢٦٦، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

- البداية والنهاية٨/ ١٧٠، ابن كثير، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، تحقيق وتعليق وتدقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

اتخذه طيلة الفترة التي أعقبت وفاة الرسول الأعظمﷺ، فإنّهعليه السلام آثر السكوت حفاظًا على كيان الدولة الفتية من قيام الفتن الداخليّة، وخطر التهديدات الخارجيّة.

وكذلك الحال مع أخيه الإمام الحسنعليه السلام الذي تولّى الأمر في ظروف صعبة، ولم يجد سبيلًا إلّا التنحي عن مركز القيادة السياسيّة للأمّة الإسلاميّة، ليحقن دماء المسلمين من أنْ تُسفك، وإبقاءً للمظاهر الإسلاميّة انتظارًا للفرصة، وترقبًا للوقت المناسب، وتعرية للحاكم الجائر الذي استطاع بدهائه، وحيلته، وإتباعه للأساليب الملتوية أنْ يخدع جمهورًا من المسلمين بشرعيّة خلافته، واستطاع عن طريق بذل الأموال الطائلة من استمالة عدد من رواة الحديث، وبعض الصحابة، لوضع الأحاديث تدعيمًا لسلطانه، وتبريرًا لتعسفه، وطغيانه.

أمّا بعد وفاته وتولّي ابنه يزيد، فقد انكشفت الحقيقة أمّام الجميع، وتبيّنت للمسلمين أبعاد المؤامرة التي بيّتها الأمويون للاستئثار بالسلطة، وتكريسها في العائلة الأمويّة تحقيقًا لأحلامهم القديمة، وأمّانيهم الطامحة للسيطرة والسلطان، فلم يعد الأمر يحتمل السكوت ما دام النّاس على علم بالواقع، ولم يبقَ هناك عذر يتذّرع به، فالنّاس على استعداد للمساندة، والقيام بما يفرضه الواجب الشرعيّ عليهم، وقد أدركوا بوعيهم الدينيّ الخطر الذي يحيق بهم إذا لم يتداركوا الأمر، وكان من هؤلاء الذين أبدوا الاستعداد التّام للوقوف إلى جانب الإمام الحسينعليه السلام وتأييده يزيد بن مسعود النهشليّ، وهو من زعماء

البصرة حيث يقول مخاطبًا قومه داعيًا إيّاهم لنصرة الحسين عليه السلام:

(إنّ معاوية مات، فأهون به والله هالكًا ومفقودًا، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم، وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمرًا ظنّ أنّه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام ابنه يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور، يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمّر عليهم بغير رضىً منهم، مع قصر حلم، وقلّة علم، لا يعرف من الحقّ موطئ قدمه، فأقسم بالله قسمًا مبرورًا لجهاده على الدّين أفضل من جهاد المشركين.

وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله ذو الشرف الأصيل، والرأيّ الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر؛ لسابقته وسنّه، وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم وجبت لله به الحجّة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحقّ، ولا تسكّعوا في وهدة الباطل)[1].

من خلال ذلك يتبين لنا أنّ هجرة الإمام عليه السلام من المدينة إلى مكة ولجوءه إلى بيت الله الحرام قد أثمرت بنتائج كان يرجوها الحسين عليه السلام، ويأملها عند خروجه من المدينة، فقد تحقّق له الاستقرار والاطمئنان بعض الوقت، فتمكن من خلال ذلك من أنْ يعرض قضيته على الجمهور الإسلاميّ، وأنْ يتعرّف على نفسيّة الأمّة تجاهه وتجاه الحكم القائم، واتصل ببعض شيعته ومريديه من أهل الكوفة وأهل

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/٢٢٨، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

البصرة، وأبدى استعداده التّام لتحقيق آمالهم، وأمّانيهم في العودة إلى الحكم الإسلاميّ الصحيح بالعمل على كتاب الله، وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله بعد أنْ أُميتت السنّة، وأُحييت البدعة.

(٣)

الإسلام نظام حياة وأيديولوجيّة شاملة

الإنسان بين الفطرة والمكتسبات

ليس من شكّ في أنّ السمة التي تميز الدّين الإسلاميّ عن سواه من الأديان والمذاهب هي كونه نظامًا للحياة، وأيديولوجيّة شاملة تتناول مختلف جوانب حياة الإنسان الفكريّة والعمليّة، فليس هو مجموعة منسّقة من الأنظمة التي يراد لها أنْ تستوعب نظريًّا، بل يراد لها أنْ تأخذ مجراها في الحياة العمليّة بحيث تنعكس على سلوك الفرد والجماعة، ويصدر النّاس في تصرفاتهم وأفعالهم بوحي من تلك الأحكام، وعلى هدى تلك التعاليم، وأهمّ ناحية اهتم بها الإسلام لتأكيد دوره في حياة الفرد المسلم هو تنمية الضمير الدينيّ والوازع الداخليّ في نفس الإنسان المسلم بحيث يصبح أمر التغيير وفقًا للأيدلوجيّة الإسلاميّة بيد الإنسان المسلم نفسه عن طريق هذا الحسّ الشعوريّ الداخليّ الذي يدفع المسلم إلى الالتزام بأحكام دينه، وينبعث بشكل تلقائيّ وفقًا لتلك القاعدة الأساسيّة التي غرسها الإسلام في أعماق نفسه، ومازجت مشاعره وخلجاته الباطنيّة، وخواطره الفكريّة، وأحاسيسه وعواطفه الوجدانيّة.

وطبيعي أنّ السبيل إلى تقوية هذه الحاسة السادسة في نفس الفرد يكون عن طريق تقوية الإيمان بالعقيدة الإسلاميّة وقيمها، وأهدافها العالية، ونزعتها التغييريّة الشاملة نحو صلاح الفرد والمجتمع،

واستنادًا إلى ذلك فإنّ الحافز الداخليّ، أو الوازع الداخليّ في نفس الفرد يمكن تنميته عن طريق الوعد والوعيد الإلهيين، فإنّ لهما دورًا مهمًا في صقل النفسيّة المؤمنة، وحملها على السير في الاتجاه الصحيح، وثانيًا عن طريق إستثارة النزعة الفطريّة في نفس الإنسان نحو فعل الخير واجتناب الشّر، وكذلك العمل على إرجاع النفس إلى حالتها الفطريّة الأولى الخالصة من شوائب المكتسبات البيئيّة المنحرفة.

ولكنّ الإنسان ليس معصومًا من الوقوع في الخطأ إلّا من عصم الله، ولذلك فهو معرّض للوقوع تحت تأثير المكتسبات والمؤثرات التي يواجهها في حياته، كما وأنّه يمكن أنْ ينساق وراء عواطفه، ونزعاته الفرديّة، ويتأثر بما يتصوّره خطأ من نظريات وأفكار يعتقد بصلاحيتها، فلو عاش فرد ما ضمن بيئة بعيدة عن القيم الروحيّة، والمُثل الأخلاقيّة بل كانت ماديّة فغالبًا ما يتضاءل هذا الوازع الداخليّ، ويموت، ولا يكون له تأثير في تصحيح سلوك هذا الفرد الذي انغمس في شهواته، وسار وراء ملذّاته حتى أعمت بصيرته، لذلك كان الإسلام واقعيًّا حينما قرّر للأمّة نظامًا سياسيًّا، ولم يترك أمر النّاس لضمائرهم فقط، ذلك لأنّ الأحكام الإسلاميّة لم تشرع إلّا من أجل أنْ تأخذ دورها في التطبيق الذي يكفل للفرد سعادته، وللمجتمع تقدّمه ورقيّه.

وهذا لا يتم إلّا إذا كان على رأس السلطة القائد الذي يعيش الإسلام قولًا وعملًا، وينبعث في ممارسته وتطبيقه للأحكام الإسلاميّة عن إيمان راسخ، وفهم عميق لأسرار التشريع، وغاياته، وأهدافه حتى تتكون الأمّة المنتظرة التي أُخرجت للنّاس، وتكون شاهدة على الأمم بفضل تمسّكها

بشريعتها، وتطبيقها لرسالتها الإسلاميّة تطبيقًا نزيها يحقّق حاجة الفرد، ويطوّر المجتمع في إطار هذا النظام السماويّ، وهذا ما كان من شأن الأمّة لمّا كانت قريبة عهد بصدر الإسلام الذي شهد أروع تجربة بشريّة لتطبيق الدّين الحنيف على يد رسول الله ﷺ، وحتى عهد أمير المؤمنين عليه السلام، أمّا حينما افتقد هذا اللون من النظام، وعاش برهة من الزمن يرزح تحت ظلّ السلطة التي رفعت شعار الإسلام زورًا وبهتانًا أدرك النّاس البون الشاسع بين ما كانوا عاشوه من قبل، وما يعيشون في ظلّه اليوم حيث انفصلت النظريّة عن التطبيق، وحيث شهدت القيادة العليا للأمّة الإسلاميّة وهي تبتعد عن روح الإسلام وواقعه، فدعاها ذلك إلى الرجوع إلى القائد الحقيقيّ للأمّة والذي تتعلق به آمالها في أنْ يقودها نحو تصحيح المسار الحقيقيّ للإسلام والذي حاول معاوية ومن جاء بعده أنْ ينحرفوا به، فكان نتيجة له - إقصاء الحاكم الشرعيّ للمسلمين عن مركزه - تضييع أحكام الإسلام، وانتهاك حرماته، وتعطيل حدوده، فرأت فئة مخلصة واعية أنْ تقوم بواجبها بمساندة الإمام الحسين عليه السلام باعتباره صاحب الحقّ الذي لا ريب فيه بين أحد من المسلمين، لاسترداد حقّه بكلّ ما يتطلّبه الأمر من قوة تطبيقًا لقول رسول الله ﷺ حيث يقول: **(من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًا لحرم الله، ناكثًا عهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل، ولا قول كان حقًّا على الله أنْ يدخله مدخله)**[1].

(١) تاريخ الطبري٤/٢٠٤، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان. قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة لندن في سنة١٨٧٩م.

- بحار الأنوار٤٤/٢٨٢، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م، تحقيق: محمد باقر البهبودي، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

من أولويات أهداف الحسين عليه السلام

ومن هنا تأتي مسألة تغيير النظام القائم في قائمة الأهداف التي يسعى الإمام الحسين عليه السلام لتحقيقها، لأنّ النظام السياسيّ في الإسلام ركن مهم لتطبيق التعاليم الإسلاميّة، وطبع المجتمع بطابعها، وهو ما يؤكّد أنّ الإسلام نظام للحياة يسعى إلى تغيير المجتمع وفق نظرته الخاصة وطبعه بطابعه المتميّز، فلا فصل في الإسلام بين الدّين والدولة، بل هو دين ودولة حيث تؤكد ذلك الأحكام الإسلاميّة التي تتناول جوانب الحياة العامة المختلفة ولا تقتصر على الجانب العباديّ، ومع تعرّض قيادة الأمّة للانحراف، فإنّ الخطر يبلغ مداه، لأنّه يهدّد الإسلام في الصميم، أو بدون القيادة المؤمنة الواعية لا يمكن أنْ يُطبِّق المبادئ الإسلاميّة، وحتى في حالة التطبيق الظاهريّ مراعاة للشعور العام، فإنّه يكون حالة مؤقّتة تتعرّض للمسخ والتحريف وبمرور الوقت تتضاءل الروح الإسلاميّة، ويمكن بالتالي القضاء على آخر المظاهر الإسلاميّة، لذلك كان تصدّي الإمام الحسين عليه السلام لقيادة الحركة الثوريّة لتقويض نظام السلطة الأمويّة يأتي منسجمًا مع المبادئ والأحكام الإسلاميّة، ويكون استجابة لتطلعات الجماهير الإسلاميّة المؤمنة بالإسلام عقيدة ونظامًا، وحيث إنّ كلّ حركة ثوريّة لا بدّ وأنْ يكون لها أهداف محدّدة، وغايات واضحة ومبيّنة، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أوضح ذلك في خطابه الذي ألقاه عشيّة خروجه من مكة، وفي وصيته لأخيه محمد بن الحنفيّة، حيث بيّن للنّاس أهدافه التي تدعوه للخروج، والاستجابة لطلب المسلمين ممّن كاتبه، ودعاه للبيعة من أهل العراق حيث يقول: **(إنّي لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا مُفسدًا، ولا ظالمًا، وإنّما خرجتُ**

لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريدُ أنْ آمر بالمعروف، وأنهي عن المُنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب، فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبرُ حتى يقضي اللهُ بيني وبين القوم بالحقّ وهو خيرُ الحاكمين)[1].

فالإمام الحسين عليه السلام إضافة إلى تمسكه بالحقّ الثابت في السلطة يشير إلى دواعي خروجه مبيّنًا فيها وظيفته كإمام شرعيّ للأمّة، ومسؤول عن تطبيق الإسلام، ومراقبة تنفيذه باعتباره الحافظ الأمين لأحكام الشريعة، فلا يسعه والحالة هذه مع وجود مَن يبدي استعداده للوقوف إلى جانبه، والتضحية بين يديه أنْ يسكت في الوقت الذي **(لزم هؤلاء – بنو أمية – طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهرُوا الفساد، وعطّلوا الحدُود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوُا حرام الله، وحرّموا حلال الله)**[2].

وهذا هو ما تعنيه كلمته عليه السلام في رسالته لأهل البصرة: **(فإنّ السُنّة قد أُميتت، وأنّ البدعة قد أُحييت)**[3]، وطبيعي في أيّ نظام يفتقد الشرعيّة أنْ يسعى بكلّ جهده إلى إماتة السنّة؛ لأنّ السنّة – وهي أقوال الرسول صلى الله عليه وآله – اعتبرت أنّ من أفضل الجهاد عند الله كلمة حقّ عند سلطان جائر، وكيف يصبر هؤلاء الحكّام على كلمات الحقّ وهي تصدر من أفواه المؤمنين مندّدة بجورهم، وفاضحة لتصرفاتهم المنحرفة،

---

(١) بحار الأنوار٤٤/٣٢٠، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

(٢) تاريخ الطبري٤/٣٠٤، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان. قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة لندن في سنة١٨٧٩م.

(٣) تاريخ الطبري٤/٢٦٦، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان. قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة لندن في سنة١٨٧٩م.

وأساليبهم البعيدة عن الإسلام، وفي الوقت الذي يسعى هؤلاء إلى إماتة السنّة عن طريق تعطيل الأحكام الإسلاميّة، وعدم تنفيذها، فإنّهم يحيون البدعة، وهي عبارة عن التصرفات اللامشروعة والتي يقرُّونها، لأنّها تنسجم مع رغباتهم، وتحقّق طموحاتهم، وهي مع كونها أمرًا خارجًا عن الإسلام إلّا أنّ هؤلاء المتربعين على كرسي السلطة باسم الإسلام يحاولون خداع الرأيّ العام بأنَّ كلّ تصرّف يصدر منهم يستند إلى الإسلام، وهكذا يسبغون على تصرفاتهم شكلًا شرعيًّا، ويراه عامة النّاس على أنّه شيء مشروع من رسالة الإسلام وهناك العديد من التصرفات-التي مارسها الحكّام-البعيدة عن روح الإسلام، ومع ذلك لم يتورعوا من نسبتها إلى الإسلام، بل وما اكتفوا بذلك حتى أنّهم سخّروا الفقهاء، ورواة الحديث من المتزلّفين إليهم والمسبّحين بحمدهم إلى وضع الأحاديث، وصياغة الفتاوى، وإصدار الأحكام التي تتفق ورغباتهم، وتحقّق مصالحهم.

صفات الإمام عليه السلام المفترض

من هذا ندرك عمق الخطر الذي أحسّه الإمام الحسين عليه السلام بحكم ارتباطه الوثيق بمنابع الإسلام ومسؤوليّته الحقّة عن رعاية المسلمين، هذا الأمر هو ما دعاه إلى البروز، والثورة في وجه هذا الانحراف الخطير بإعلانه خروج الحاكم يزيد بن معاوية عن صلاحيّة الحكم باعتباره مشهورًا بسلوكه الشائن، وفسقه الظاهر الذي كان موضع اتفاق المسلمين، فقد كان معروفًا بالابتعاد عن الإسلام منذ حياة والده معاوية والذي نصّبه بالرغم من معارضة المسلمين وليًّا للعهد، فقد كتب الحسين عليه السلام جوابًا لمعاوية في شأن طلبه البيعة منه لابنه يزيد قائلًا

له: (**وفهمت ما ذكرته عن يزيد تريد أنْ توهم النّاس في يزيد كأنّك تصف محجوبًا، أو تنعت غائبًا، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص، وقد دلّ على يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهنّ، والقيان ذوات المعازف، وضروب الملاهي تجده ناصرًا...**)[١].

فمَن كانت هذه صفاته وأفعاله، فكيف يؤمّر على المسلمين، أو يؤتمن على شريعة الله والحال أنّه إنسان قد تربّى في أحضان مشبوهة وبعيدة عن روح الإسلام في الوقت الذي يعرض فيه عن الشخصيّة التي اختارها الله، ونصّ عليها رسول الله ﷺ لزعامة المسلمين، وقيادتهم الذي قال فيه جدّه الرسول محمد ﷺ: (**حسين منّي وأنا من حسين**)[٢]، (**حسين سبط من الأسباط**)[٣]، فإذا كان الحسين عليه السلام بهذه المثابة، وفي مثل هذه المنزلة الخصيصة من رسول الله تربّى في حِجر الإسلام، وتغذّى من روح الإيمان، فالتفاوت واضح بين التربيتين، والتباين ظاهر بين الشخصيتين، والمسلم الواعي لا يمكن له التسليم بأنْ يكون مثل يزيد خليفة على المسلمين، ويكون الحسين عليه السلام رعيّة من رعاياه، وهو يعلم صفات الإمام الذي يجب أنْ يفوّض إليه الأمر، وأنّها غير متوفرة في شخص يزيد، فلعمري كما يقول الحسين عليه السلام: (**ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه مع ذات الله**)[٤].

---

(١) الغدير ١٠/٢٤٨، الشيخ الأمينيّ، الطبعة الرابعة ١٣٩٧- ١٩٧٧م، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

(٢) المعجم الكبير ٢/٢٢، الطبراني، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

(٣) المعجم الكبير ٢/٢٢، الطبراني، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

(٤) تاريخ الطبري ٤/٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

وقد أدرك المسلمون هذا التفاوت بين شخصيّة يزيد وبين مَن يجب أنْ يكون خليفة على المسلمين، وهي موجودة في شخص الإمام أبي عبد الله الحسين بن عليعليه السلام، فكانت أنظارهم متجهة نحوه، وقلوبهم متعلقة به باعتباره صاحب الحقّ الذي لا ينازعه أحد فيه، وأنّه لا يوجد على وجه الأرض أحد يساميه، أو يساويه.

(٤)

من عوامل نجاح الحركات

استقبال المكاتيب والرسائل

من عوامل نجاح كلّ حركة أو ثورة أنّها تتدرج في سبيل الوصول إلى أهدافها، وتسير حسب مراحل زمنيّة تتناسب وطبيعة النضال الذي تخوضه، وتسلك الطرق الكفيلة بإحراز النجاح، وتتجاوز مواقعها التي هي فيها إلى مواقع أخرى متقدمة، وتستعمل خططًا تتوافق مع تلك الظروف التي تحيط بها، فهي تنتقل من دور المعارضة السريّة إلى دور الهجرة إلى مكان تستطيع فيها أنْ تجهر برأيها، وتصدع بدعوتها، وتكشف للجمهور أهدافها، ثم تعمل على إيجاد مواقع للدعوة في المناطق المختلفة لتجميع الأنصار، وتهيئة الأوضاع حتى تأخذ الثورة طريقها، وتتخطّى العقبات التي تقف في وجهها، كما على قيادة الثورة أنْ تختار المنطقة التي يمكن أنْ تنطلق منها شرارة الثورة مراعية في ذلك موقعها الجغرافيّ، ووضعها الاجتماعيّ، وتاريخها السياسيّ.

لقد كانت الرسائل العديدة التي تلقّاها الإمام الحسين عليه السلام من أعيان أهل الكوفة وزعمائها أول دليل على استعداد الأمّة للتجاوب معه في دعوته، والوقوف إلى جانبه، ودعم معارضته، فقد كانت هذه الرسائل تبرز في جانب منها عن نفسيّة الأمّة تجاه الوضع الذي تعيشه من ظلم وانحراف، فأفرادها يعبّرون عن معاوية بأنّه: (**الجبار العنيد، الذي نزى على هذه الأمّة، فأبتزّها أمرها، وأغتصبها فيئها، وتأمّر عليها**

بغير رضىً منها، ثم قتل خيارها، واستبقى أشرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدًا له كما بعدت ثمود)[١].

وثمة كتاب آخر من جماعة من أهل الكوفة يظهرون فيها ترحيبهم البالغ بقدوم الحسين عليه السلام، ويستعجلون التوجه إليهم: (**أمّا بعد فحيّ هلّا؛ فإنّ الناس ينتظرونك ولا أرى لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام**)[٢].

وكتاب ثالث يعلن فيه مرسلوه عن سعادتهم لمجيء الحسين عليه السلام إليهم، وأنّهم مستعدون للوقوف معه جنودًا مخلصين: (**فقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت، فأقدم على جند لك مجندة**)[٣]. وفي موضع آخر من بعض الكتب يعلنون فيها صراحة تخليهم عن الولاء لحكم يزيد: (**وأنّه ليس علينا إمام؛ فأقبل لعلّ الله أنْ يجمعنا بك على الحقّ**)[٤].

وكتاب آخر يقولون فيه: (**إنّا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة، فأقدم علينا، فنحن في مائة ألف سيف، فقد فشا فينا الجور، وعمل فينا بغير كتاب الله وسنّة نبيّه، ونرجو أنْ يجمعنا الله بك على الحقّ، وينفي عنّا بك الظلم، فأنت أحقّ بهذا الأمر من يزيد وأبيه الذي غصب الأمّة، وشرب الخمور، ولعب بالقرود، والطنابير، وتلاعب بالدّين)**[٥].

---

(١) تاريخ الطبري٤/٢٦١-٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

(٢) تاريخ اليعقوبي٢/٢٤٢، دار صادر، بيروت- لبنان.

(٣) تاريخ الطبري٤/٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

(٤) تاريخ الطبري٤/٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

(٥) حياة الإمام الحسين عليه السلام٢/٢٢٤، الشيخ باقر شريف القرشي، الطبعة الأولى١٣٩٥، ١٩٧٥م، مطبعة الآداب، النجف الأشرف- العراق.

فهذه الرسائل المتتالية التي كانت تنهال على الإمام الحسين عليه السلام وهو في مكة شجّعته على أنْ يأخذ زمام المبادرة ويدخل مرحلة جديدة من مراحل جهاده ضد الطغمة الفاسدة بعد أنْ وجد الأرضيّة الصالحة لغرس دعوته، وكان على الإمام عليه السلام وهو القائد المحنّك أنْ يتفحّص أمر هذه الكتب، ويتبيّن حقيقة هذه الوعود؛ ليكون على بيّنة من أمره، وعليه أنْ لا يندفع وراء هذه المطالب قبل أنْ يتحقّق من صحتها، ويتعرّف على نوايا أصحابها، ذلك لأنّ الأمر الذي يزمع القيام به ليس بالأمر الهيّن، بل هو على درجة من الخطورة تتطلّب من القائد التريّث، والحذر اللازمين لتأمين نجاح الحركة.

إرسال السفراء

ورغبة من الإمام الحسين عليه السلام في أنْ لا يخيب أتباعه، وأنْ يحقّق آمالهم وفي نفس الوقت يتعرّف على حقيقة الأوضاع في الكوفة، ومدى صدق أهلها في استغاثتهم به، ولكي يمهّد الطريق أمامهم ويوطّد الأمور حتى يجعل من الكوفة مركزًا لانطلاقته، وقاعدة لحركته، فإنّه عليه السلام اختار أنْ يبعث إليهم رسولًا من قِبله يقوم بكلّ هذه الأمور، وهي خطوة حكيمة تدل على عمق الفهم، وبُعد النظر السياسيّ لدى الإمام عليه السلام، وإنّ اختيار شخص تتوافر فيه صفات معيّنه تؤهله؛ كي يقوم بالمهمة التي أُسندت إليه خير قيام كان هو ما يتطلّبه الموقف، ويفرضه الواقع بشرط أنْ يكون ذلك المبعوث على مستوىً كبير من الدراية، والحنكة، والبصيرة بالأمور، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام حين اختار أنْ يكون ابن عمّه مسلم بن عقيل سفيرًا من قِبله إلى أهل الكوفة، علمًا

من الإمام الحسين‏عليه السلام بكفاءته، وحُسن تدبيره، وهو كما قال‏عليه السلام في خطابه الذي حمله مسلم معه إلى أهل الكوفة وجاء فيه: (**سلام عليكم، أمّا بعد: فقد أتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم، وأنا باعث إليكم بأخي، وابن عمي، وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل؛ ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم، وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم عليكم إنْ شاء الله والسلام**)[1].

وطبيعي أنّ القائد الحكيم، والسياسيّ المحنّك هو الذي يختار أفضل الشخصيّات التي تتمكن من القيام بالمهمة الموكلة إليها خير قيام، إذ أنّ هذا الشخص المنتدب يتحمّل مسؤولية كبيرة تتوقف على نجاحها أمر الدعوة وتقدّمها، فلذلك جاء اختيار الإمام الحسين‏عليه السلام لشخصية ابن عمه مسلم بن عقيل؛ ليكشف عن أهمية هذا الاختيار، فقد كان مسلم موفّقًا في مهمته، واستطاع خلال فترة زمنيّة قصيرة أنْ يكسب الأتباع، وأنْ يصبح سيّد الموقف في الكوفة حتى اضطر الوالي من قِبل الأمويّين وهو النعمان بن بشير إلى اعتزال المجالات العامة بسبب إقبال النّاس على المبعوث الحسينيّ، ومبايعتهم له ممّا اضطر النعمان بن بشير إلى أنْ يتّخذ موقفًا سلبيًّا، ويقول: (**لا أقاتل إلّا من قاتلني، ولا أثب إلّا على من وثب عليّ، ولا آخذ بالقرفة، والظنة، فمن أبدى صفحته، ونكث بيعته ضربته بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم أكن إلّا وحدي**)[2].

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٢، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتاب العربي، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور: جمال الدين الشيال- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٢١، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتاب العربي، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور: جمال الدين الشيال- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي.

فمن هذا المنطق ندرك الفزع الذي انتابه، والهزيمة التي مني بها، كما أنّ موقف الكوفيين من استقبالهم بحفاوة لرسول الإمام الحسين عليه السلام يدلّ بوضوح على مدى النقمة التي يحملونها في نفوسهم للحكم الأمويّ، وكان هذا الموقف العمليّ الذي واجهه مسلم بن عقيل من أهل الكوفة يؤكّد ما جاء في كتبهم التي بعثوا بها للإمام الحسين عليه السلام يعرضون فيها عليه البيعه، ويطلبون منه فيها القدوم إليهم، ويكشفون فيها عن المساوئ التي عاشوها في ظل الحكم الأمويّ.

وكلّ ذلك ممّا عايشه مسلم بن عقيل، ولمسه من أهل الكوفة ممّا دعاه إلى أنْ يكتب للإمام الحسين عليه السلام بحقيقة الأمر، ويدعوه فيها إلى القدوم: **(أمّا بعد: فإنّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا -وفي رواية البلاذري أنّ جميع أهل الكوفة معك-، فعجّل حين يأتيك كتابي هذا، فإنّ النّاس كلّهم معك ليس لهم في آل أبي سفيان)**[1].

لقد قام مسلم بن عقيل بمهمته خير قيام، وأدّى وظيفته كأحسن ما يكون، فهو من هذه الناحية لا يمكن الغمز واللمز فيه، والانتقاد له، فإنّ المهمة التي أوكلت له كانت هي تطلّع أخبار أهل الكوفة والتحقّق من موقفهم، وأخذ البيعة منهم، إلّا أنّ الأمور لم تجرِ وفقًا لما كان يأمله مسلم ويرجوه، فقد كان الحزب الأمويّ يعمل ليلًا ونهارًا خصوصًا بعد مقدم مسلم إلى الكوفة، وهؤلاء لمّا وجدوا أنّ الأمر قد فلت من أيديهم، وأنّ الوالي لم يعد باستطاعته السيطرة على الموقف، وإدارة الأمور بحزم وشدة، فإنّهم أرسلوا برسالة إلى يزيد بن معاوية يطلعونه بحقيقة

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٢، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتاب العربي، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور: جمال الدين الشيال- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي.

الأمر، ويطالبونه باتّخاذ الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على الكوفة من أنْ تخرج من حوزته، (**فكتب مسلم بن سعيد الحضرمي وعمارة بن عقبة، وكانا عيني يزيد بن معاوية يعلمانه قدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة داعية للحسين بن عليّ، وأنّه قد أفسد قلوب أهلها عليه، فإنّ يكن لك في سلطانك حاجة، فبادر إليه من يقوم بأمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك، فإنّ النعمان رجل ضعيف، أو متضاعف**)[1].

لقد كشفت هذه الرسالة عن التأثير الواسع الذي أحدثه وصول مسلم إلى الكوفة، وكيف أنّهم عزلوا الوالي عن صلاحياته العامة، وهو ما يؤكّد أقوال أهل الكوفة التي بعثوا بها في رسائلهم إلى الحسين عليه السلام، وأنّهم (**لا يحضرون الصلاة مع الولاة**)[2]، وأنّ (**النعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد**)[3]، بل واستعدادهم إلى عزله (**ولو بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام**)[4].

كلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ القوم كانوا صادقين في دعواهم، وهو ما شاهده مسلم بن عقيل بنفسه حيث انثالوا عليه، والتفوا حوله معلنين ولاءهم للحسين عليه السلام، وكان لا بدّ للسلطة أنْ تتحرك بسرعة؛ لتتلافى الموقف من التدهور، وكي لا تسقط الكوفة في يد الحسين عليه السلام،

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٢١، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتاب العربي، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور: جمال الدين الشيال- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢/٢٢٤، الشيخ باقر شريف القرشيّ، الطبعة الأولى١٣٩٥-١٩٧٥م، مطبعة الآداب، النجف الأشرف- العراق.

(٣) تاريخ الطبري٤/٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

(٤) تاريخ الطبري٤/٢٦٢، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

وتعود إلى موالاة أبناء عليّ عليه السلام مرة أخرى؛ لذلك فقد استشار يزيد بن معاوية أعوانه في التدابير التي ينبغي اتخاذها لمواجهة الموقف الحرج، فأشير عليه بأنْ يعزل النعمان بن بشير عن الكوفة، ويسند ولايتها إلى والي البصرة عبيد الله بن زياد لما عرف عنه من الدهاء، والمكر، والشدّة.

غطرسة الطغاة

ولما كان الموقف في البصرة أيضًا مهددًا بالانفجار نتيجة الرسالة التي بعث بها الإمام الحسين عليه السلام إلى أعيان البصرة، ووجهائها على يد مولى له يسمى سليمان جاء فيها: (**بسم الله الرحمن الرحيم: من الحسين بن عليّ إلى مالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، سلام عليكم، أمّا بعد: فإنّي أدعوكم إلى إحياء معالم الحقّ، وإماتة البدع، فإنْ تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد، والسلام**)(١).

وكان من الممكن أنْ تبقى هذه الرسالة في طيّ الكتمان، ولا تبلغ مسامع عبيد الله بن زياد لولا أنّ واحدًا من هؤلاء وهو المنذر بن الجارود - وكان على علاقة مصاهرة مع ابن زياد- أفشى بهذا السرّ ممّا دعا ابن زياد إلى استدعاء الرسول، وضرب عنقه، ثم دعا النّاس إلى اجتماع عام في المسجد الأعظم، فاجتمع له النّاس، فقام، وقال: (**أنصف القارة من راماها، يا أهل البصرة، إنّ أمير المؤمنين قد**

(١) الأخبار الطوال، ص٢٢١، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، دار إحياء الكتاب العربي، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور: جمال الدين الشيال- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي.

ولاني مع البصرة الكوفة وأنا سائر إليها، وقد خلّفت عليكم أخي عثمان ابن زياد، فإيّاكم والخلاف والإرجاف، فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خالف أو أرجف، لأقتلنّه وعريفه ووليه، ولأخذنّ الأدنى بالأقصى، حتى يستقيم لي الأمر)[1].

وتلك هي عادة الطغاة، وهذا هو أسلوب المستبدين، فمتى ما أحسّوا بحركة، أو معارضة تصطدم مع سلطانهم، فإنّهم يبادرون إلى القمع، والإرهاب لإسكات الأصوات، وكمّ الأفواه، واستعمال العنف في ظنهم أنّه هو الأسلوب الأمثل لتدعيم سلطانهم وتركيز سيطرتهم، والذي يظهر أنّ الكوفة كانت تمثّل الخطر الأهم الذي يجب مواجهته، لذلك شدّ ابن زياد رحله متوجهًا إلى الكوفة في محاولة للسيطرة على الأمور المتأزمة والأوضاع المضطربة، خصوصًا وهو على علم بأنّ الحسينعليه السلام في طريقه إلى الكوفة، فكان يجدّ السير بخطى حثيثة؛ ليصل بالسرعة الممكنة التي تسمح له بمعالجة الأوضاع، والقضاء على المقاومة وهي بعد في مهدها قبل أنْ يصعب علاجها بعد وصول الإمام إليها، وكان لابن زياد ما أراد، فقد تمكن من التسلل إلى الكوفة متنكرًا في زيّ حجازي وحيث كان النّاس في انتظار قدوم الحسينعليه السلام، وترقبه فإنّهم توهموا أنّ القادم هو الحسينعليه السلام، فقوبل بالحفاوة، والتكريم، والتبجيل، والتعظيم، وقد حفّ به جمهور غفير حتى وصل إلى قصر الإمارة حيث يقيم النعمان بن بشير، وكان هذا قد انعزل عن الأمّة داخل القصر ولم يكن بإمكانه أنْ يتصرّف، أو يغير الأمور، وقد اعتقد هو أيضًا أنّ القادم هو الحسينعليه السلام، لذلك ما إنْ وصل الركب إلى باب القصر حتى أشرف

(١) البداية والنهاية٨/١٧٠-١٧١، ابن كثير، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، تحقيق، وتدقيق: وتعليق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

النعمان من فوق القصر قائلًا كلامًا يكشف عن نفسيّته المهزومة: (**ما أنا بمؤد إليك أمّانتي يا بن رسول الله، ومالي في قتالك إرب...**)[١]، ولمس ابن زياد الانهيار، والتخاذل في كلام النعمان، فأجابه بنبرات حادّة فيها غلظة، وشدة: (**أفتح لا فتحت فقد طال ليلك**)[٢].

وهنا عرف الكوفيون أنّ هذا الراكب ليس كما اعتقدوه - أنّه الحسين عليه السلام، وإنّما هو عبيد الله بن زياد، فساد الوجوم، وهُرع النّاس إلى منازلهم تعلو وجوههم الحيرة، والارتباك وهم لا يدرون ماذا يفعلون، وقد استغل ابن زياد هذا الوقع النفسيّ الذي أحدثه مجيئه المباغت؛ ليعقد اجتماعًا داخل القصر ضمّ مجموعة من أعوانه، وعيون بني أميّة في الكوفة؛ ليتعرّف على حقيقة الأوضاع، ويضع الخطط العاجلة لاستعادة الموقف لصالح بنى أميّة، وبعد أنْ انتهى الاجتماع الطارئ الذي عقده مع أركان حربه، وأعيان حزبه قرّر الدعوة إلى اجتماع عام في المسجد، وألقى خطابًا جاء فيه: (**أمّا بعد: فإنّ أمير المؤمنين - أصلحه الله - ولّاني مصركم، وثغركم، وأمرني بإنصاف مظلوكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه الصدق ينبئ عنك لا الوعيد**)[٣].

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢/٢٥٨، الشيخ باقر شريف القرشيّ، الطبعة الأولى١٣٩٥-١٩٧٥م، مطبعة الآداب، النجف الأشرف- العراق.

(٢) تاريخ الطبري٤/٢٦٨، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

(٣) تاريخ الطبري٤/٢٦٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

دهاءٌ وبطشٌ

وقد كان لهذا الكلام الصادر من ابن زياد وقع سيئ في نفوس الشيعة ممّن بايع مسلمًا، والذين فوجئوا بمقدم ابن زياد الذي استطاع بدهائه ومكره أنْ يسحب من أيديهم زمام المبادرة، ويجعلهم في موقف الدفاع، وهنا تدخل قضية مسلم مع أهل الكوفة فصلها الثاني الحافل بالمتاعب، والنكبات، فقد ضاعت الجهود التي بذلها في سبيل تمهيد الأمر لابن عمه الإمام الحسينعليه السلام، وذلك نتيجة للتصرّف السريع الذي قام به ابن زياد والذي استطاع أنْ يجمع فلول أنصاره وأعوانه، ويواجه مسلم مواجهة سافرة، لم يتورّع فيها ابن زياد من استعمال أساليب الشدّة والعنف، فاعتقل الزعماء، وبثّ العيون والجواسيس، واستمال بعض رجال القبائل بالأموال، وأثار الفزع والاضطراب بين سائر الطبقات تخويفًا وإرهابًا، ولم تمضِ فترة بسيطة إلّا ومسلم ابن عقيل مع أحد كبار الزعماء المساندين له - هانئ بن عروة - يَمْثُلان أمّام ابن زياد، ويقابلهما بكلمات ملؤها الحقد والكراهيّة، ويتصرّف معهما تصرفًا شائنًا، وينتهي الأمر بهما إلى القتل، وسحب جثّتيهما في شوارع الكوفة.

إنّ ابن زياد لم يترك وسيلة من وسائل الإرهاب والعنف إلّا واتّبعها ممّا مكّنه من أنْ يقضي على آخر جيوب المقاومة، ويُعدّ العدّة، ويجهّز الحملة لمواجهة أكبر وهي التصدّي لركب الإمام الحسينعليه السلام الذي يجدّ السير حثيثًا في طريقه إلى الكوفة استجابة لطلب أهلها، واعتمادًا على كتاب مسلم بن عقيل.

(٥)

استراتيجيّة التحرك السياسيّ

عَضد التحرّك

كلّ من يحاول أنْ يقوم بانتفاضة جماهيريّة لابدّ له من أنْ يُعدّ العدّة لها مسبقًا ويخطّط لها خطة مُحكمة يسير على أساسها، وأهم بند يفكّر فيه قائد الحركة أنْ يضمّ إلى حركته أكبر عدد من المساندين له، والمؤيّدين لحركته حتى يجعل منهم سندًا يعوّل عليه عند قيامه بالانتفاضة، ومتى ما وجد القائد أنّ دعوته قد أخذت طريقها إلى النفوس، ووجدت استجابة لدى النّاس، فإنّه عند ذلك يمكن أنْ يُعلن الثورة، ويواجه السلطة مواجهة علنيّة اعتمادًا على شعبيّته، ويستطيع أنْ يملي مطالبه التي يسعى لتحقيقها.

وقد وجدنا الإمام الحسينعليه السلام قد سلك هذا الطريق، فهو بعد أنْ غادر مدينة جدّهصلى الله عليه وآله خوفًا على حياته، وفرارًا بنفسه وعائلته من أنْ يضّطر إلى البيعة وهو كاره لها، ولجوؤه إلى بيت الله الحرام عائذًا به، والتفاف النّاس حوله، واشتهار أمره، وورود الكتب والرسائل من شيعته من أهل الكوفة يطلبون منه القدوم، ويعرضون عليه الدعم والمساندة، وقد استجاب الإمام الحسينعليه السلام لطلبهم حينما أرسل ابن عمه مسلم ابن عقيل؛ ليستكشف له حقيقة الأمر ويبعث له، وقد قام مسلم بالمهمة التي أوكل لها، وأرسل رسالة للحسينعليه السلام يدعوه فيها

للقدوم، وأنّ أهل الكوفة كلّهم معه، وقد وصل الكتاب للحسين عليه السلام، وكان من المؤمّل أنْ يشدّ الرحال نحو العراق بعد انتهاء موسم الحج وفي اليوم الثامن من ذي الحجة فاجأ الحسين عليه السلام النّاس بعزمه على الخروج من مكّة والعدول عن الحج، فكان لهذه المفاجأة وقعها المثير في نفوس المسلمين، فهرعوا للحسين عليه السلام يستفسرون منه عن صحّة عزمه، ويطلبون منه إتمام حجه، أو البقاء في مكّة حتى يتحقّق سقوط النظام، أو اختيار مكان آخر غير الكوفة نظرًا لتأريخها المعروف مع أهل البيت عليهم السلام وما لاقوه من أهلها من غدر وخيانة إلّا أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعر هذه النّصائح اهتمامًا يُذكر، بل وقف خطيبًا في المسجد الحرام، ليعلن للنّاس تصميمه على الخروج مهما كلّف الأمر حيث قال: (**الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلّا بالله، وصلّى الله على رسُوله، خُطّ الموتُ على وِلد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشًا جوفًا، وأجربةً سغبًا، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينهُ، وينجز بهم وعده، من كان باذلًا فينا مهجته موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّني راحل مصبحًا إنْ شاء الله تعالى**)[1].

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، ص٢٨، السيد ابن طاووس، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، أنوار الهدى، قم- إيران.

الحسين عليه السلام لا يخشى الموت

لقد تضمنت هذه الخطبة أنّ حدثًا قد صدر حدا به عليه السلام أنْ يقرّر الرحيل عن مكّة، ويغادرها بمثل هذه السرعة، وفي مثل هذا الوقت. إنّنا ومن خلال التمعّن فيما جاء في هذه الكلمات ندرك أنّ الحسين عليه السلام قد أحسّ بخطر يتهدّد حياته، وأنّ السلطة قد دبّرت له أمرًا للقضاء عليه والتخلص منه، فقد ترامى إلى سمعه أنّ يزيد قد أرسل مجموعة من أعوانه متنكرين في ثياب الحجاج، ليندسوا بين النّاس ويغتالوا الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن الخوف من الموت هو الذي دفع الإمام عليه السلام للخروج بهذه السرعة من مكّة، ذلك لأنّه كثيرًا ما كان يصرّح وحتى في هذه الخطبة بأنّ الموت أمرٌ لا بدّ منه، وأنّه يتنبأ بمصيره، فقد سبق وأنْ قال في كلام له مع ابن عمر الذي يدعوه إلى البقاء في المدينة: (**هيهات يا بن عُمر! إنّ القوم لا يتركُوني إنْ أصابُوني، وإنْ لم يُصيبُوني فلا يزالُون حتى أُبايع وأنا كاره، أو يقتُلوني**)[1].

الحسين عليه السلام بين خيارين

فهو أمّام أمرين: إمّا المبايعة وإمّا الموت، وهو مصمِّم على عدم البيعة ليزيد، فلم يبقَ مفرٌ من الثاني، ولكن إذا كان الموت أمرٌ لا بدّ منه، فهو لا يختار أنْ يكون في بيت الله الحرام الذي جعله الله مكانًا آمنًا، ومكان عبادة، فتنتهك حرمة ذلك المكان المقدّس بسببه، ومعلوم أنّ مثل يزيد وأعوانه لا يتورّعون عن الإقدام على اغتيال الحسين عليه السلام، وعلى هتك

(١) كتاب الفتوح٥/٢٥، أحمد بن أعثم الكوفي، الطبعة الأولى١٤١١هـ، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

حرمة هذه الأمّاكن المقدّسة بجريمتهم الشنعاء، وعند ذلك يضيع دم الحسين عليه السلام هدرًا دون أنْ يعرف النّاس أسباب مقتله، عِلمًا بأنّه - أيّ الحسين عليه السلام - كان على علم بأنّ شخصًا يُقتل في الحرم، وتنتهك به حرمة الكعبة كما أخبره جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فهو لا يحبّ أنْ يكون هو هذا الشخص، وهذا ما صرّح به لابن الزبير - وهو الشخص الذي كان المقصود - حينما طلب منه البقاء في مكّة، والتحصّن بها، فأجابه: (**ما كنتُ بالكبش الذي تنتهك به حرمة البيت!**)[1].

ويمكن أنْ يضاف إلى ذلك سبب آخر دعا الإمام الحسين عليه السلام إلى العدول عن الحجّ والتوجه إلى العراق في هذا الوقت بالذات، وأنّ الإمام عليه السلام قد اختار هذا التوقيت بالذات، لأنّ الحجّاج في مثل هذا اليوم وهو يوم التروية يستعدون للتوجه إلى المشاعر المقدّسة لأداء مناسك الحجّ، ومن النادر جدًّا أنّ أحدًا يتخلّف عن هذه المشاعر إلّا إذا كان هناك أمر ذو بال يدعو إلى العدول، وهو ممّا سيثير التساؤل خصوصًا من شخصيّة منظورة كالإمام الحسين عليه السلام، فإنّ عدوله في مثل هذا اليوم عن الاستمرار في مناسك الحجّ يدعو إلى الاستغراب، ويثير التساؤل، وهي خطوة ذكيّة ترمي إلى إلفات نظر عموم المسلمين إلى غاية الإمام الحسين عليه السلام، وموقفه الصريح من الحكم الأمويّ، وهو ما سوف يكون له دويٌّ وصدى كبيران في المناطق الإسلاميّة المختلفة، ويسلّط الأضواء من جديد على شرعيّة الحكم الأمويّ المتسلِّط على رقاب المسلمين، على أنّ الإمام الحسين عليه السلام ماض في تنفيذ خطّته، وقد جاءته رسالة مسلم بن عقيل تخبره بإجماع أهل الكوفة على مبايعته، فلماذا لا يبادر

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٨، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان

بالخروج والإسراع إلى الكوفة قبل أنْ تتغيّر الأحوال، ويطرأ ما لم يكن في الحسبان خصوصًا وأنّ مُسلمًا قد حثّه على الاستعجال في القدوم، لذلك وجّه الحسين عليه السلام رسالة إلى أهل الكوفة يُعلمُهم فيها بموعد خروجه من مكّة، وأنّه جادّ السير في الطريق إليهم، ويقول فيها:

(بسم الله الرحمن الرحيم: من الحسين بن عليّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين سلامٌ عليكم، فإنّي أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، أمّا بعدُ: فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصيرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أنْ يحسن لنا الصنع، وأنْ يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمانٍ مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي، فاكمشوا أمركم، وجدّوا، فإنّي قادم عليكم في أيامي هذه إنْ شاء الله....)[1].

الثبات على الخط

فالحسين عليه السلام مازال عند وعده، وقد صمّم على الخروج مسرعًا للحاق بأرض العراق حيث الشيعة والأنصار قبل أنْ يتمكّن يزيد، وأعوانه من الفتك به.

إنّ السلطات الجائرة وهي تعلم مكمن الخطر المتمثِّل في شخص الحسين عليه السلام لا يمكن أنْ يهدأ لها بال، وأنْ يقرّ لها قرار ما دام الحسين عليه السلام على قيد الحياة، فالحسين عليه السلام ليس شخصًا عاديًّا يمكن التغاضي عنه، وتجاهل معارضته، بل هو محط أنظار الأمّة، وهو الشخص الذي تتعلّق

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩٧، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان

به قلوب المسلمين، وتنعقد عليه آمالهم، وبمقتضى مجريات الأمور، فإنّ الحسين عليه السلام يدرك إدراكًا عميقًا الأساليب الخبيثة التي يمكن أنْ تلجأ إليها السلطة الأمويّة في تدبير قتله غِيلة، لذلك أراد الإمام عليه السلام أنْ يفوّت عليها هذه الفرصة؛ لتكون المواجهة بينه وبين الحكم القائم سافرة، ويتحمّل النظام تبعة النتائج التي يتمخّض عنها الاصطدام بين الطرفين، ومعلومة للأمّة أهداف الحسين عليه السلام المعلنة والصريحة، فهو لم يخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا مفسدًا وإنّما خرج لطلب الإصلاح في أمّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أنْ يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وهذه مسؤوليّة كلّ مسلم يجد في نفسه القدرة، ويحسّ أنّ السكوت عن هذا المنكر يعتبر إماتة للسنّة، وإحياء للبدعة، لذلك فإنّ الحسين عليه السلام ماضٍ في مهمته مهما كانت النتائج، فدمه الطاهر ليس أغلى من إحياء شريعة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله إذا كان وجود الدين يتوقف على أهدار دمه، وإذا لم يتصدَ مثل الحسين عليه السلام لمقاومة هذا الباغي، وتصحيح هذا الانحراف، فمَن هو أولى من الحسين عليه السلام بهذه المهمة؟!

لذلك ومن أجل أنّ احتمالات الموت في هذه الرحلة أكثر من احتمال الحياة والنّصر، كان الإمام الحسين عليه السلام صريحًا في موقفه، بعيدًا عن الشعارات الفارغة، والأمّاني الواسعة التي يطلقها عادة الدعاة والقادة من أجل تدعيم حركتهم وإغراء أتباعهم، بل كان الحسين عليه السلام يحدّد مهماته، وأنّ قضيته تتطلّب البذل، والتضحية، وتوطين النفس على ملاقاة الشدائد (**من كان باذلًا فينا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحًا إنْ شاء الله**)[1]، فمثل هذا

---

(١) أعيان الشيعة١/٥٩٢، السيد محسن الأمين، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان.

العزم القويّ، والتصميم الجادّ من الحسين عليه السلام هو ما يفسر إلينا عدم اكتراث الحسين عليه السلام بما حصل في الكوفة من ارتداد عن بيعته كما سنرى بعد قليل.

ويمضي الإمام عليه السلام القائد في سيره نحو العراق، وهو يتتبّع أخبار الكوفة ممّن يلاقيهم أثناء طريقه، وقد جاءت هذه الأخبار بغير ما كان الإمام عليه السلام يأمل، فالفرزدق الشاعر يوافيه، ويقول له جوابًا عن سؤاله عن حالة الكوفة: كيف خلفت النّاس بالعراق؟

قال: **خلّفتهم وقلوبهم معك، وسيوفهم عليك**[١].

لكنَّ الإمام عليه السلام يمضي في سبيله لا يعبأ بمثل هذه الأخبار، ولا تبعث في نفسه الجزع، أو تثبط من همته، بل على العكس من ذلك يكتب كتابًا عاجلًا إلى أهل الكوفة ردًّا على كتاب ابن عمه مسلم الذي وافاه، ويؤكّد لهم أنّه في الطريق إليهم: (**بسم الله الرحمن الرحيم: من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين بالكوفة سلام عليكم، أمّا بعد: فإن كتاب مسلم بن عقيل ورد عليّ باجتماعكم لي، وتشوقكم إلى قدومي، وما أنتم عليه منطوون من نصرنا، والطلب بحقّنا، فأحسن الله لنا ولكم الصنيع، وأثابكم على ذلك بأفضل الذخر، وكتابي إليكم من بطن الرمّة، وأنا قادم عليكم، وحيث السير إليكم والسلام**)[٢].

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٥، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٤٥، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

الانطلاقة الواثقة والأهداف الواضحة

ولعلّ هذا الكتاب يسلّط بعض الضوء على سبب خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكّة، والتعجّل في السير إليها، إذ الظاهر أنّ الإمام عليه السلام قد بلغه سعي أفراد الحزب الأمويّ لتعيين عبيد الله بن زياد واليًا على الكوفة بدلًا من النعمان بن بشير، والإمام عليه السلام يعرف قبل غيره شخصيّة ابن زياد، ومكره، ودهاءه، فلذلك كان في نيّته أنْ يتّجه بالسرعة الممكنة قبل أنْ يصلها الطاغية ابن زياد.

إلّا أنّ ابن زياد - وكما عرفنا سابقًا ـ قد بادر إلى التوجه نحو الكوفة بعد أنْ علم بكتاب الحسين عليه السلام إلى أهل البصرة، حيث أقدم على قتل حامل الكتاب، والتوجه بعد ذلك بسرعة إلى الكوفة، لتدبير أمرها قبل أنْ يصلها الحسين عليه السلام .

وقد تمّ له ما أراد، فبعد وصوله، وإحكام أمر الكوفة، والسيطرة عليها بيدٍ من حديد، واعتقال أعيان الشيعة، واستمالة عدد من الشخصيّات العشائريّة، وقتل مسلم وهاني وجّه ابن زياد بفرق عسكريّة ترصد قدوم الحسين عليه السلام، وتمنع القادمين من دخول الكوفة إلّا بعد التفتيش الدقيق. هذا والحسين عليه السلام يواصل المسير نحو الكوفة، ويوافيه بعض الخارجين منها، وكما هي عادته فإنّه يستفسر عن أوضاع الكوفة، وكان ممّن لقيه في الطريق عبد الله بن مطيع، فسلّم على الحسين عليه السلام، وقال له: بأبي أنت يا بن رسول الله ما أخرجك من حرم الله، وحرم جدك؟، فقال: إنّ أهل الكوفة كتبُوا إليّ يسألونني أنْ أقدم عليهم لمّا رجُوا من إحياء معالم الحقّ، وإماتة البدع، قال له ابن مطيع: أنشدك الله أنْ لا تأتي

الكوفة، فوالله لئن أتيتها لتقتلنّ، فقال الحسين عليه السلام: **(لن يُصيبنا إلّا ما كتب الله لنا)**[1].

تصميم الحسين عليه السلام

ويتجلّى من هذا الحوار تصميم الحسين عليه السلام في المضي في مهمته مهما كانت النتائج، فهو قد لبّى نداء الواجب، وسار على طريق الثورة، وهو على استعداد لتحمّل نتائجها ما دام هدفه واضحًا وهو إقامة معالم الحقّ، وإماتة البدع، ومَن جعل هذا غاية له، فهو على استعداد لتحقيقه بأيّ طريقة، ثم حتى ولو كان على حساب حياته، فليس الهدف هو المنصب حتى يقال: إنّ الظروف الموضوعيّة ليست في صالحه حتى يسعى لأجل هذه الغاية، بل من السياسة أنْ يتحيّن الفرصة المناسبة، إلّا أنّ غاية الحسين عليه السلام ليست هي الوصول إلى كرسي الحكم والسلطة، لأجل حبّ الحكم والتسلط، وإنّما من أجل تحقيق الغاية العليا، والهدف الأمثل الذي ضحّى في سبيله جدّه النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وأبوه الإمام المرتضى، وأخوه الإمام المجتبى عليهما السلام، وهذه الغاية - وهي إماتة البدع، وإحياء السنّة - ليس طريقها سهلًا مفروشًا بالرياحين، بل طريق وعر تعترضه الأشواك والعقبات، ولا يسلكه إلّا من وطّن نفسه على تحمّل المشاق، والتضحية بكلّ شيء، فما أعظمها من غاية، وما أجلّه من هدف!

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٦، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

إنّه تجديد الدّين بعد اندراسه، وإحياؤه بعد موته، لذلك لم يعبأ الإمام الحسين عليه السلام بالمخاطر المحتملة، ما دام قد وطّن نفسه منذ البدء على مواجهتها بكلّ شجاعة، وصمود.

وقد كان الإمام عليه السلام صريحًا مع مَن تبعه بأنْ يُوّطن نفسه على الموت، وهذا ما صرّح به زهير بن القين الذي تعرف على الإمام الحسين عليه السلام أثناء الطريق، وبعد أنْ قابل الإمام عليه السلام، واطلع على حقيقة الحال عاد إلى زوجته، وجماعته، فقال لامرأته: (**أنت طالق، فتقدّمي مع أخيك حتى تصلي منزلك، فإنّي قد وطّنت نفسي على الموت مع الحسين بن عليّ عليه السلام، ثم قال لِمَن كان معه من أصحابه مَن أحبّ منكم الشهادة، فليقم، ومَن كرهها، فليتقدم**)[1].

إذًا مسألة القتل في قائمة الاحتمال، وأنّ هناك احتمال للمواجهة، ومع ذلك فلا يبدو التراجع عند الإمام الحسين عليه السلام خصوصًا وأنّ الأخبار تؤكد وصول ابن زياد للكوفة، ومصرع مسلم وهاني، فـ(قد التقى الإمام عليه السلام في مكان يسمّى زرود برجل من بني أسد، فسأله عن الخبر، فقال: **لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، ورأيت الصبيان يجرّون بأرجلهما، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله نحتسب أنفسنا**)[2].

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٦-٢٤٧، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٤٧، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

لقد كان هذا الخبر وحده كافيًا لأنْ يبرّر للإمامعليه السلام عودته إلى الحجاز، فإنّ الأمر قد تغيّر تمامًا في الكوفة، وأصبح المضيّ إليها أشبه بحالة انتحاريّة، وفعلًا فقد أشار عليه جماعة كانوا معه، فقالوا له: (**ننشدك الله يا بن رسول الله في نفسك، ونفس أهل بيتك، هؤلاء الذين نراهم معك انصرف إلى موضعك، ودع المسير إلى الكوفة، فوالله ما لك بها ناصر**)[1].

دروس للتاريخ

إلّا أنّنا وقد عرفنا موقف الحسينعليه السلام الصريح وهو عدم المبالاة بالموت، ما دام لا خيار له فيه، إلّا بالبيعة والتسليم ليزيد بن معاوية، وهذا ما رفضه ويرفضه الآن، فليس من المتوقّع من الحسينعليه السلام والحالة هذه أنْ يعود أدراجه إلى الحجاز قبل أنْ يطرق أبواب الكوفة، ويلقي الحجّة عليهم، ويحملّهم تبعة الخذلان؛ ليكون للتاريخ درسًا لا يُنسى، وعِبرة تُتذّكر دائمًا عبر الأجيال، ومثلًا أعلى للوفاء بالوعد من قبل الإمامعليه السلام، ونكث العهد من قبل أهل الكوفة، وليقتل الإمام الحسينعليه السلام ضحيّة إيمانه بقضيّة الإسلام الكبرى، فهو لا يهاب الموت ولا يخشاه، فهؤلاء بنو عقيل وكانوا معه يقولون: ما لنا في العيش بعد أخينا مسلم حاجة، ولسنا براجعين حتى نموت، فقال الحسينعليه السلام تأكيدًا لكلامهم: (**فما خير في العيش بعد هؤلاء**)[2].

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٧، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٤٧، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

إنّه تصميم على المواجهة، فالأمر لا يحتمل غير ذلك والكوفة قد أعلنت ولاءها للحاكم الجديد عبيد الله بن زياد الذي لم يتورّع عن قتل مسلم بن عقيل رسول الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة، وقتل هانئ بن عروة من كبار زعماء الشيعة، لذلك فإنّ مَن يلحق بالحسين عليه السلام لابدّ وأنْ يكون على علم بالأمر، وأنّ الإمام عليه السلام ليس ذاهبًا إلى مكان يُستقبل فيه بالأحضان كما كانوا يأملون، فكان هذا الموقف محكًّا لاختبار نوايا المصاحبين له (**وقد كان صحبه قومٌ من منازل الطريق، فلمّا سمعوا خبر مسلم وقد كانوا ظنّوا أنّه يقدم على أنصار وعضد، تفرقوا عنه، ولم يبق معه إلّا خاصته**)[1].

ومع اقتراب الإمام الحسين عليه السلام من الكوفة، فإنّ القادمين منها والذين يلاقون الحسين عليه السلام في الطريق لا يكفّون عن إخباره بحقيقة الوضع المتأزّم في الكوفة، ويعرضون عليه النّصيحة بالعودة من حيث أتى، واستعداد السلطة لمواجهة الحسين عليه السلام، وتجنيد أهل الكوفة لقتاله والوقوف في وجهه، بينما كان ابن زياد رغم سيطرته المستحكمة في الكوفة يتوجّس الخوف، وينتابه القلق خوفًا من وصول الحسين عليه السلام إلى الكوفة حيث من المحتمل أنْ ينقلب أهل الكوفة عليه -ابن زياد- وتثور في نفوسهم النقمة من جديد ضدّ الأمويين، لذلك كان ابن زياد وهو المعروف بدهائه، وحُسن تدبيره قد أعدّ للأمر عدّته، فهذا رجل من بني عكرمة يوافي الحسين عليه السلام في مكان يُدعى بطن العقيق يخبره

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٨، الدينوري، الطبعة الأولى١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى١٩٦٠، بالقاهرة.

(**بتوطيد ابن زياد الخيل ما بين القادسية إلى العذيب**[1] **رصدًا له، ثم قال له: انصرف بنفسي أنت، فوالله ما تسير إلّا إلى الأسنّة، والسيوف، ولا تتكلَنّ على الذين كتبوا إليك، فإنّ أولئك أول النّاس مبادرة إلى حربك**)[2]، وقدكشف هذا الرجل للإمام عليه السلام الواقع الذي تعيشه الكوفة.

أول المواجهات

وقد صدق الرجل فيما قال، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام بينما هو في الطريق (**تراءت لهم الخيل، فقال الحسين عليه السلام لزهير ابن القين: أما هاهنا مكان يلجأ إليه، أو شرف نجعله خلف ظهورنا، ونستقبل من وجه واحد، قال له زهير بلى، هذا جبل ذي جشم يسرة عنك فمل بنا إليه، فإنْ سبقت إليه فهو كما تحب، فسار حتى سبق إليه، وجعل ذلك الجبل وراء ظهره، وأقبلت الخيل، وكانوا ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي**)[3].

إلقاء الحجة

لقد كان ذلك أول مواجهة تحصل بين الإمام الحسين عليه السلام وبين أتباع ابن زياد المرسلين لمراقبة وصول الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ولم تحصل بين

---

(١) العذيب: ماء لبني تميم على مرحلة من الكوفة، سمي بذلك لأنه طرف أرض العرب.

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٤٨، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

(٣) الأخبار الطوال، ص٢٤٨، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

الجانبين مناوشات عسكريّة، بل كانت فرصة للتفاوض، وإبداء وجهات النظر، فإنّ الإمام عليه السلام وهو يعلم وظيفة هذا الجيش القادم بزعامة الحرّ، يقول لهم بعد أنْ صلّى الجميع بصلاة الحسين عليه السلام: (**أيّها الناس معذرة إلى الله، ثم إليكم، إنّي لم آتيكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم، فإنّ أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهودكم، ومواثيقكم دخلنا معكم مصركم، وإنْ تكن الأخرى انصرفت من حيث جئت**)[1].

إنّ الحسين عليه السلام بكلماته أمّام الحرّ وجماعته يكشف لنا سرّ إصراره على مواصلة السير إلى الكوفة رغم وصول الأخبار المتتالية له بانقلاب الأمر في الكوفة ومقتل ابن عمّه مسلم بن عقيل، فقد كان من نيته أنْ يواجه القوم مواجهة مباشرة ويبيِّن لهم أنّ السبب الذي دعاه للقدوم إليهم لم يكن بمبادرة منه وإنّما استجابة لطلبهم، وأنّه قد لبّى طلبهم، واستجاب لرغبتهم، فإنْ هم كانوا على العهد الذي قطعوه له، فهو قد وصل وما عليهم إلّا أنْ يقوموا بواجبهم الإسلاميّ نحوه، وإنْ هم تخلّوا عن عهدهم، ونقضوا مواثيقهم، فهو في حلّ منهم، وليس له إلّا العودة من حيث أتى بعد أنْ أدّى واجبه تجاههم، وألقى عليهم تبعة المسؤوليّة الخطيرة، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام، ليحتجّ عليهم من دون دليل، بل إنّه كان يحمل معه تلك الكتب والرسائل التي تلقّاها من أهل الكوفة، ولتأكيد كلامه دعا (**بالخرجين اللذين فيهما كتبهم، فأتى بخرجين مملوءَين كتبًا، فنثرت بين يدي الحرّ وأصحابه**)[2]،

---

(١) الأخبار الطوال، ص٢٤٩، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

(٢) الأخبار الطوال، ص٢٤٩، الدينوري، الطبعة الأولى ١٩٦٠م، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركاه- منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٩٦٠، بالقاهرة.

ولنتأملْ كلمة الإمام الحسين﴾ هذه: (**فإنْ أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم دخلنا معكم مصركم**)[1]، لتدرك نفسيّة الإمام﴾ العالية، وأنّه ليس في موقف يعرض فيه التنازلات، ويستعمل فيه أسلوب الدعاية والإغراء، وإنّما كان واثقًا من نفسه، وأنّه يطالبهم بالعهود، والمواثيق التي تضمن صدقهم، ووقوفهم إلى جانبه حتى يطمئنّ إليهم، ويدخل معهم مصرهم، وإلّا فإنّه راجع إلى موطنه بعد أنْ أدّى مهمته، وقام بواجبه، وتلك هي شخصيّة الحسين﴾ نراها دائمًا قويّة صامدة لا تقبل المساومة أو التنازل عن الحقّ، بل تعكس الإصرار والتصميم على إزالة المنكر، وتغيير الوضع تغييرًا يعيد للأمّة كرامتها، ويعيد للإسلام عزّته، فلو كان الإمام الحسين﴾ طالب سلطة لكان بإمكانه أنْ يعرض على هؤلاء الجوائز، ويمنّيهم بالمناصب، ويغريهم بالوعود إلّا أنّ الإمام﴾ يحملّهم المسؤوليّة، ويدعوهم إلى القيام بالدور الذي ينبغي أنْ يقوموا به من إنكار المنكرات، ومقاومة حكّام الجور، وعدم السكوت عن الحقّ (**ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟**)[2].

ولكن يبدو أنّ الشيطان قد طمس على أعينهم، فأنساهم ذكر الله، لذلك فإنّهم لم يعبأوا لكلمات الإمام﴾، ولم تحرّك فيهم حسًّا إسلاميًّا، وشعورًا دينيًّا، بل إنّ المطامع الدنيويّة التي منّاهم بها ابن زياد، وأسياده قد حجبت أعينهم عن رؤية الحقيقة، وصمّت آذانهم عن سماع نداء الله.

---

(١) الأخبار الطول: ص٢٤٩، الدينوري

(٢) تاريخ مدينة دمشق١٤/٢١٨، ابن عساكر، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع١٤١٥هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان

(٦)

القائد بمواقفه

شخصية القائد

إنّ شخصية كلّ قائد تظهر من خلال معالجته للمواقف الحرجة التي تواجهه بحكمة وتدبر، لأنّ هذه المواقف تعدّ اختبارًا لمقدرته، وامتحانًا لقوّة شخصيّته، وطبيعي أنْ يلجأ القائد إلى كلّ وسيلة تكسبه الموقف، ويحرز بها النّصر، والقائد الرساليّ هو الذي يلتزم في طريقّة حلّه للأزمات، ومواجهته للتحدّيات المبادئ التي يعتقدها، ولا يتخلّى عنها مهما كلّفه ذلك من تضحيات، ذلك لأنّه إنّما يجاهد من أجل ترسيخ تلك المبادئ، فمن الطبيعيّ أنْ يتجنّب كلّ عمل يتنافى وطبيعة ذلك المبدأ الذي يستند إليه، ويجعل منه المثل الأعلى، وهو بعمله هذا يدعم الأساس الذي تقوم عليه تلك المبادئ والقيم، ويثبّت أركانها، ويقوّي دعائمها.

والإمام الحسين عليه السلام لمّا كانت حركته حركة مبدئيّة قائمة على أساس بعث الروح في القيم والمبادئ الإسلاميّة التي أوشكت على الانهيار بتولّي الطلقاء من بني أميّة مقاليد الأمور، فإنّه كان متمسكًا بتلك المبادئ وثابتًا عليها، ومصمّمًا على ترسيخها مهما كلّفه ذلك من ثمن، فلقد وطّن نفسه الشريفة على تحمل كلّ ما يطرأ، وواجه بنفسه قَدَرَهُ المحتوم دون أنْ يركنَ إلى الخمول، ويختبئ في زوايا الجدران بعيدًا عن الواقع، وخوفًا من المصير، إذ أنّ أمر الأمّة، وإعادة كرامتها المهدورة، وصيانة

دينها من التحريف والتزييف يفرضان عليه القيام بهذا الواجب؛ لتقويم ذلك الانحراف، وصدّ التيارات الهوجاء التي تهدّد بتقويض دعائم الإسلام.

بين الحسين عليه السلام والحرّ

نجد ذلك متمثّلًا في موقفه مع الحرّ بن يزيد الرياحيّ الذي اعترضه في طريقه إلى الكوفة حيث قال له الحرّ: (**لقد أمرنا أنْ نلازمكم، ونجعجع بكم حتى ننزلكم على غير ماء، ولا حصن، أو تدخلوا في حكم يزيد وعبيد الله بن زياد...، فما كان من الإمام الحسين عليه السلام إلّا أنْ ردّه بثباته المعهود، وتصميمه القويّ: «بأنّ الموت أدنى من ذلك»**)[1].

فإنّ هذا الموقف يذكّرنا بموقفه في المدينة عندما استدعاه والي المدينة وعرض عليه أمر البيعة فرفضها، وهو هنا مازال عند قوله السابق لا يتزحزح عنه باعتبار أنّ ذلك غير قابل للمساومة والمناقشة، ولن تفلَّ من عزيمته هذه التحدّيات التي يواجهها.

لقد صمّم على المضي في رفضه لبيعة يزيد حتى النهاية سواء كان معه أحد يناصره ويسانده أم لم يكن، فهو إنْ وجد الأنصار والمساندين، فإنّه معهم، ويلبِّي طلبهم إذا طلبوا منه القدوم إليهم وقيادتهم، وهو قد فعل، وحضر إلى الكوفة وفاءً بوعده، واستجابةً لطلبهم، أمّا وقد

(١) إنّ الوارد في النص التاريخيّ هو: (وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى من ذلك). البداية والنهاية٨/١٨٦، ابن كثير، تحقيق، وتدقيق، وتعليق: علي شيري، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

نقضوا العهد، ونكثوا البيعة، فليس أمّامه من خيار آخر إلّا مواصلة الرفض، والموت في سبيل الحقّ، فإنّه يقول: (**لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لهم إقرار العبيد**)[1].

لقد أدرك الحرّ أنّ الحسين عليه السلام بموقفه هذا يعرض نفسه للخطر، لذلك حذّره من مغبّة عدم الركون إلى حكم ابن زياد علمًا منه بأنّ هذا الأخير قد بيَّت النية على قتل الحسين عليه السلام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام لم يأبَه لهذا التحذير، وكأنّه يعلم بالمصير الذي سيؤول إليه، فلذلك لم يكن ليخشى الموت مادام متمسكًا بمبدئِه، ومؤمنًا بعدالة قضيّته، فهو يقول للحرّ جوابًا يكشف عن نفسية الإمام عليه السلام القويّة، ومعنوياته العالية: (**أفبالموت تخوفني؟، وهل يعدو بكم الخطب أنْ تقتلوني؟، وما أدري ما أقول لك؟! ولكنّي أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: أين تذهب؟، فإنّك مقتول، فقال:**

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى	**إذا ما نوى حقًّا وجاهد مُسلما**
وآسى الرجالَ الصالحين بنفسه	**وخالف مثبورًا وفارق مجرما**
فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلَمَ	**كفى بك ذلًا أن تعيش وترغما**[2]

إنّ الحسين عليه السلام بموقفه المتصلّب هذا يدرك أنّ القوم لن يتركوه حرًّا طليقًا مادام لم يذعن لإرادتهم، فهو الآن في قبضة أيديهم، ولذلك فهم أيضًا على علم بأنّ بقاء الحسين عليه السلام أمر يهدّد كيانهم، ويزعزع أمنهم، ويثير القلق في نفوسهم، فما عليهم وهو الآن بين ظهرانيهم

(١) البداية والنهاية٨/ ١٩٤، ابن كثير، تحقيق، وتدقيق، وتعليق: علي شيري، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

(٢) تاريخ الطبري٤/٣٠٥، الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.

إلّا وأنْ يضايقوه، ويضطّروه إلى البيعة أو التسليم لهم، لذلك فإنّ هذه القوّة العسكريّة التي يتزعّمها الحرّ لم تترك الإمام الحسين عليه السلام وشأنه يذهب إلى أيّ مكان يريد، بل إنّها بقيت تراقب ركب الإمام الحسين عليه السلام، وترصد تحركاته، وحينما أراد الإمام مواصلة سيره حال الحرّ بينه وبين المسير، وحصلت بينهما مشادّة كلاميّة حيث قال الحرّ مخاطبًا الإمام الحسين عليه السلام: (**إنّي لم أؤمر بقتالك، وإنّما أمرت أنْ لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد، فإذا أبيت، فخذ طريقًا لا يقدمك الكوفة، ولا تردك المدينة...**)[١].

الخوف من إتساع رقعة المعارضة

فقد اتضّح من هذا الكلام الصادر من الحرّ أنّ القيادة الأمويّة قد صمّمت العزم على محاصرة الإمام الحسين عليه السلام والتضييق عليه، وعدم السماح له بالتوجه إلى أيّ نقطة أخرى خوفًا من إثارة المشاكل في وجوههم، ولقد كانوا يعلمون حقّ العلّم مكانة الإمام الحسين عليه السلام في نفوس المسلمين عامةً، ومدى تأثير كلماته فيهم، لذلك فإنّهم يخشون من وجود الإمام عليه السلام، واتصاله بأيّ جهة أخرى من جهات الدولة الإسلاميّة، لأجل ذلك أرادوا قطع الطريق على الإمام الحسين عليه السلام، ومحاصرته حتى يتمّ لهم ما يريدون من ضمان استقرارهم، ومنعًا لتوتّر الموقف، واتساع رقعة المعارضة المتمثّلة في وجود الحسين عليه السلام، ولقد كان في تخطيطهم لمحاصرة الحسين عليه السلام أنْ يعزلوه في مكان ناءٍ غير صالح للإقامة، وليس فيه مجال للمقاومة والدفاع إمعانًا

---

(١) البداية والنهاية٨/١٨٧، ابن كثير، تحقيق، وتدقيق، وتعليق: علي شيري، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

في التضييق على الإمام عليه السلام، فقد كانت الأوامر المشدّدة التي يحملها الحرّ من ابن زياد تقضي بأنْ (**يعدل بالحسين عليه السلام في السير إلى العراق في غير قرية، ولا حصن حتى تأتيه رسله وجنوده..**)[1].

النوايا المبيتة

ومن هنا تتضح النوايا التي يبيّتها الأمويون، وأتباعهم للتخلّص من الحسين عليه السلام، وتصفيته ممّا يؤكّد ما كان الإمام عليه السلام يخبر به، ويشير إليه دائمًا من أنّ القوم لن يتركوه حتى يبايع أو يقتل، كما أنّ هذه الإجراءات التعسفيّة التي لجأت إليها القيادة الأمويّة من ملاحقة الإمام الحسين عليه السلام، والتضييق عليه تكشف عن الحالة النفسيّة التي وصلوا إليها من ذعر، وفزع، وخشية من وجود الإمام الحسين عليه السلام وبقائه حيًّا، وهذا ما يدلّ على عدم وجود القاعدة الشعبيّة التي يستندون إليها. وبينما كان الإمام عليه السلام يحاول اتخاذ طريق آخر يبتعد عن الكوفة كانت قوّات الحرّ تقطع عليه الطريق، وتطلب منه البقاء في هذا المكان المعزول تنفيذًا للأوامر التي تحملها من والي الكوفة، وقد كان هذا الموقف من الحرّ يمكن أنْ يفجّر الموقف، فقد طلب بعض أصحاب الإمام عليه السلام منه السماح لهم بالاشتباك المسلّح مع قوّات الحرّ، إلّا أنّ الإمام عليه السلام قد رفض ذلك قائلًا بأنّه: (**ما كنت لأبدأهم بالقتال**)[2]، وهذا الموقف مبدئيّ، فالإمام عليه السلام ليس من غايته القتال، بل رغبته في كشف الحقائق أمّام هذا الجمع المخدوعين الذين تناسوا في وقت قصير الوعود التي

---

(١) البداية والنهاية٨/١٨٨، ابن كثير، تحقيق، وتدقيق، وتعليق: علي شيري، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

(٢) مستدرك الوسائل١١/٨، الميرزا النوري، الطبعة الثانية١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، تحقيق، ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت- لبنان

قطعوها على أنفسهم بالوقوف إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام، ومساندته وهم الآن يتخلّون عنه، بل ويستعدون لقتاله، وهنا تبدو القضية قد وصلت إلى نهايتها المحتومة، فالقوم يحاصرونه، ويمنعونه من العودة أو التوجه إلى مكان آخر، وهم يريدون إرغامه على الخضوع لحكم ابن زياد والقبول ببيعة يزيد بن معاوية، وهذا هو ما رفضه أولاً، وتحمّل ما تحمّل في سبيل ذلك كلّ هذه المحن، ولكنّه لم يلن، ولم يخضع، لأنّ القبول ببيعة يزيد بن معاوية أمر ترفضه المبادئ الإسلاميّة، وتأباه القيم والأعراف المتّبعة، وليس بوسع أيّ مسلم أنْ يقبل بذلك ويسكت على هذا الوضع الشاذّ المتمثل بتولي يزيد منصب الخلافة، فكيف بالحسين عليه السلام وهو ربيب بيت النبوة أنْ يقبل بذلك ويذعن، فإنّ الأمر ليس قضيّة شخصيّة يمكنه أنْ يتغاضى عنها، بل هو قضيّة أمّة آمنت بالإسلام دينًا وعقيدة وشريعة، ويراد لها اليوم أنْ تتخلى عن هذه الشريعة، وتقبل بحكم الطاغوت، والاستبداد، وهو يؤمن بمقالة جدّه الرسول صلى الله عليه وآله: (**إنّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يده أوشك أنْ يعمّهم الله بعقاب..**)[1]، فلا مناص إذًا من أنْ يقاوم الإمام عليه السلام هذا الظلم والطغيان سواء حصل من يعينه أم لم يحصل، وسواء كانت النتيجة هي النّصر أم الشهادة، فلا بدّ من الوقوف في وجه هذا الطاغية وتنبيه الأمّة بخطورة مثل هذا الأمر، وتحميلها المسؤوليّة للقيام بواجبها.

وها هو الإمام عليه السلام يواجه مصيره المحتوم بعد أنْ تخلّى عنه أتباعه من أهل الكوفة، وأوصدوا أبوابها في وجهه، وأعطوا البيعة لابن

(١) ميزان الحكمة٢/١٩٤٥، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، تحقيق، وطبع: دار الحديث.

زياد ناكثين بيعتهم للإمام عليه السلام على يد ابن عمه مسلم بن عقيل.

أرض كرب وبلاء

وقد أحسّ الإمام عليه السلام بهذه النهاية المؤلمة وهو يقترب من مكان اضطرته قوات ابن زياد لأنْ يقيم فيه، فيتساءل عن اسم هذا الموضع، فيقال له: كربلاء، عند ذلك يتذكر أقوال جدّه صلى الله عليه وآله، وأبيه عليه السلام وهي تخبره عمّا سوف يحصل له في هذا المكان، فيقول عليه السلام: **(هذا موضع كرب وبلاء انزلوا، هاهنا مناخ ركابنا، ومحطّ رحالنا، ومقتل رجالنا، ومسفك دمائنا)**[1].

ينزل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في هذا الموضع الذي اختاره له الحرّ بن يزيد الرياحيّ تنفيذًا لأوامر ابن زياد بأنْ ينزل الحسين عليه السلام في أرض بعيدة من غير ماء ولا نخيل، كلّ ذلك محاولة من ابن زياد على إرغام الحسين عليه السلام والتضييق عليه، لكنّ الإمام عليه السلام وهو يعلم بمصيره المحتوم لم يكن ليجزع ممّا أصابه، ولم يجد الخوف والفزع إلى قلبه سبيلًا، فهو يملك نفسًا أبيّة لا تلين ولا تخضع، وإنّ هذا الموقف الذي يواجهه الآن لا يزيده إلّا صلابة وتمسكًا بمبدئه وكذلك تكون نفس المؤمن الصادق الإيمان الذي لا تزعزعه الشدائد، ولا تزلزله النكبات، بل يقابلها بقلبه الواثق بالله القويّ الإيمان، فإنّ مثل هذه الأمور من عادة الدنيا ومن يعيش فيها وليس ذلك بغريب، فـ**(إنّ النّاس - كما يقول الإمام الحسين عليه السلام نفسه: - عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محصّوا بالبلاء قلّ الديّانون)**[2].

---

(١) أعيان الشيعة١ /٥٩٨، السيد محسن الأمين، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان.
(٢) أعيان الشيعة ١/٥٩٨، السيد محسن الأمين، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان.

وإذا كان ذلك من طبيعة أكثر النّاس، فما موقف أهل الكوفة ونكثهم البيعة إلّا من هذا القبيل، ولم يكن الإمام عليه السلام ليأسى على شيء فاته، فهو لم يأتِ لطلب السلطان، والتّحكم في رقاب الناس وإنّما جاء ليقوم بوظيفته الشرعيّة وواجبه الذي يفرضه الإسلام، وهو قد أدّى واجبه وقام بوظيفته، والمؤمن موطّن نفسه على ما يكتبه الله له، فهو لا يملك لنفسه من الأمر شيئًا، وذلك لم يزد الإمام عليه السلام في جواب له لشخص طلب منه العودة بعد أنْ نكث أهل الكوفة البيعة له قال: **﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾**[1]، فهو يعكس بذلك اطمئنانه النفسيّ لكلّ ما سوف يصادفه من محن وأهوال، وليس الموت في نظره شيئًا مخيفًا، بل هو قدرٌ على جميع النّاس، فهو كما يقول عنه في خطبة له: (**خُطّ الموت على ولِد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة**)[2]، وها هو الآن يواجه هذا القدر المحتوم ولكن بقلب المؤمن المطمئن، يقول عليه السلام في أول خطبة له بعد وصوله إلى كربلاء: (**أمّا بعد: فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وأنّ الدنيا قد تغيّرت، وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما**)[3].

---

(١) التوبة:٥١.

(٢) كشف الغمة٢/ ٢٣٩، ابن أبي الفتح الإربلي، دار الأضواء، بيروت- لبنان.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف، ص٤٨، السيد ابن طاووس، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، أنوار الهدى، قم- إيران.

(٧)
تبليغ الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

أشكال الدعوة

تتخذ الدعوة إلى الإسلام أشكالًا مختلفة، وأساليب متنوعة، منها التأليف والنشر، والكتابة والخطابة وعظًا وإرشادًا وتوجيهًا، والإسلام لا يتدخل في تحديد شكل الخطابة وغيرها من وسائل الدعوة مادامت تلتزم بالضوابط الشرعيّة، والقواعد الدينية، والروح الإسلاميّة، والمبادئ الخُلقية، حيث يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

ولقد كان الرسول الأعظم ﷺ القدوة للمصلحين، والدعاة الموجّهين، والخطباء المرشدين، كما هو قدوة لجميع المسلمين لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣]، ولقد كان المعروف من سيرة

---

(١) فصلت:٧١

(٢) النحل:١٢٥.

(٣) الأحزاب:٢١.

الرسول ﷺ التزامه بالمبادئ الأخلاقيّة التي جاء بها القرآن ممّا كان له أبلغ التأثير في نجاح دعوته، وتحقيق هدفه، يقول تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[١]، وبهذه السجايا الحميدة، والأخلاق الفاضلة استحق المدح من القرآن له بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٢] إضافة إلى التزامه بحرفيّة ما يقول، وتنفيذ ما يدعو إليه، وقد ورد عنه ما معناه أنّه (**ما أمرتكم بأمر إلّا وكنت أسبقكم إلى العمل به**)، وكذلك كان الأئمة عليهم السلام من بعده يقتفون أثره، ويسيرون على نهجه، ويدعون إلى طريقته، يقول الإمام الصادق عليه السلام: (**كونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زينًا، ولا تكونوا شينًا**)[٣].

دور الخطابة

ولقد كان للخطابة دور مهم في مجال الدعوة إلى الإسلام إذ أنّها الوسيلة التي برع العرب في استخدامها، وفاقوا غيرهم فيها، ولم تكن وسيلة للتأثير في الرأيّ العام أفضل منها، ولهذا اتخذها الإسلام الوسيلة المفضّلة، والأسلوب الجيّد؛ لإرشاد النّاس وتوجيههم، وتعريفهم بمبادئ دينهم وأحكام شريعتهم، ولم يكتفِ بذلك بل إنّه اعتبرها شكلًا من أشكال العبادة حينما جعلها من جملة أعمال صلاة الجمعة تلك الصلاة الجامعة التي أمر الله بإقامتها، وفرض على المسلمين الحضور إليها بقوله

---

(١) آل عمران:١٥٩.

(٢) القلم:٤.

(٢) الكافي ٢/٧٧، الشيخ الكليني، الطبعة الرابعة١٣٦٥ش، تحقيق، وتصحيح، وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكذلك اعتُبِرت الخطبتان من أعمال صلاة يومي العيدين عيد الفطر وعيد الأضحى، إضافة إلى ذلك اعتبارها في المناسبات والمواقيت الأخرى كلّ ذلك لما في الخطبة من فوائد للسامعين، وتأثير كبير على المصلّين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وكثيرًا ما كان النّبيﷺ وكذلك الخلفاء من بعده كأمير المؤمنين عليّ عليه السلام ما يستعينون بالخطابة في تبليغ أوامرهم للنّاس، وتعميم تعاليمهم لسائر المسلمين في حالات الحرب والسلم، وهذا نهج البلاغة يجمع بين جوانبه الخطب الرنّانة، والكلمات البليغة والتي تفوّه بها أمير المؤمنين عليه السلام، وسيّد الفصحاء والموحدين، وما تحويه من معانٍ مختلفة، وأغراض متنوّعة تجمع بين العقيدة، والأخلاق، والسياسة، والاجتماع.

ومن طريق الخطابة يستطيع الخطباء، والموجّهون، والفقهاء المجتهدون أنْ يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر قيامًا بواجبهم الشرعيّ، وأداء لوظيفتهم الدينيّة بأسلوب قرآنيّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٢).

---

(١) الجمعة:٩.

(٢) فصلت:٢٤.

المنبر النزيه

كلّ هذا إذا كانت الأمور تجري وفقًا لمجراها الطبيعيّ من دون أنْ تتدخل السلطات الجائرة؛ لتكمّم الأفواه وتصادر الحرّيات، وتستولي على المنابر، وتشتري الأبواق المأجورة؛ لتفرض على النّاس سياستها الضالة، وتمنع الجهر بالحقّ كما فعل بنو أميّة حينما سخَّروا المنابر لخدمة أغراضهم، وترويج دعاياتهم، وتشويه سمعة خصومهم، وكما يفعل حكّام اليوم في أكثر من مكان، فهم بعد أنْ سخّروا وسائل الإعلام من صحافة، وإذاعة، وتليفزيون لمصلحة الأنظمة الحاكمة، وبثّ دعاياتها، وترويج أهدافها، بل وأنّ الأمر لم يقتصر على ذلك وإنّما تعدّاه إلى السيطرة على المؤسسات الدينيّة من مساجد، وجمعيات، ومآتم حسينيّة، كلّ ذلك لأجل وضع الرقابة الحكوميّة على هذه المؤسسات الدينيّة والتي كان من المفروض أنْ تبقى لها حرمتها، وقدسيتها الدينيّة، وأنْ تكون منابر حرّة يمارس فيها المسلمون مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوعية النّاس، وتوجيههم، وإرشادهم نحو الطريق السويّ، والصراط المستقيم.

المنابر الحسينيّة

ولقد كانت المنابر الحسينيّة ومازالت في منأى عن هذه الهيمنة الحكوميّة، والسيطرة الرسميّة لما لها من اتصال شعبي مباشر، إذ لم تكن للدولة أيّ إشراف على هذه المآتم، بل إنّها تدار من قِبل الهيئات الأهليّة، وترعاها القيادات الدينيّة، وكان من المفروض على خطباء هذه المنابر أنْ يولوا الناحية التوجيهيّة، والتوعية الإسلاميّة كلّ اهتماماتهم، ذلك لأنّ هذه المنابر وإنْ كان تأسيسها المبدئيّ من أجل العزاء على

الحسين عليه السلام، واستعراض سيرته، وما جرى عليه من أعدائه، لكنّ التأمل في الأهداف التي قُتل الإمام الحسين عليه السلام في سبيلها، وقدّم نفسه الزكيّة فداء وتضحية لها لم تكن إلّا للقيام بواجبه الشرعيّ وهو إقامة حكم الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي سبيل الدعوة إلى الإسلام، وبيان مبادئه، وأحكامه، وهذا مما لا يتنافى مع إحياء ذكرى الحسين عليه السلام وأصحابه، الذين قتلوا من أجل أنْ تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

(٨)

دور المسجد الريـاديّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(١)

اهتم الإسلام بتخصيص أمّاكن معيّنة للعبادة تتوافر فيها شروط معيّنة لأداءالفرائض اليوميّة فيها، واعتبر هذه الأمّاكن بيوتًا لله، تشريفًا لها، وتكريمًا لمكانتها، واحترامًا لقدسيّتها، مع أنّ المبادئ الإيمانيّة تنفي عن الله من أنْ يحويه مكان، أو أنْ يشار إليه في أيّ جهة من الجهات، لأنّه موجود في كلّ مكان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾(٢)، ولكن من أجل أنْ يرتبط المسلمون في عبادتهم بالتوجه إلى الله متّحدين، ومتمّسكين بحبل الامتثال لأمره تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾(٣)، فلذا كانت المساجد أمّاكن مخصّصة للعبادة والصلاة ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ❖ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(٤).

---

(١) الجن:١٨.
(٢) البقرة:١١٥.
(٣) آل عمران:١٠٢.
(٤) النور:٣٦-٣٧.

ومنذ اليوم الأول الذي أصبح فيه للمسلمين كيان سياسيّ بدأ الرسول الأعظمﷺ بإقامة المسجد؛ ليكون المكان المعدّ للصلاة، والمقرّ الرسميّ لإدارة شؤون الجماعة الإسلاميّة حيث كان شكل الحكومة الإسلاميّة آنذاك بسيطًا بعيدًا عن التعقيدات، والتشكيلات المتبعة في دواوين الدول الأخرى والتي تعتمد على المراسيم، والمظاهر الروتينيّة، وما عُرف بالإجراءات (البروتوكولية).

كلّ ذلك كان مرفوضًا من وجهة نظر الإسلام باعتباره نظامًا جماهيريًّا متصلًا اتّصالًا مباشرًا بالقضايا الشعبيّة، فكان المسجد إضافة إلى كونه مكانًا للصلاة مقرًّا لقيادة الجيش الإسلاميّ، ومكانًا للقضاء، وحلّ الخصومات، ومأوى للفقراء والغرباء، وفي فترات تلت صدر الإسلام اتّخذ المسجد طابع المدرسة التي يتلقّى فيها المسلمون دروسًا في القرآن، وتفسيره، والحديث ورجاله، وأصول العقيدة الإسلاميّة، فساهم المسجد بدور هام في نشر التوعية الدينيّة، وبثّ المعارف الإسلاميّة، وقد عرف المسلمون الكثير من المساجد في أمّهات الأمصار الإسلاميّة التي كانت معاهد للعلم والعبادة كالجامع الأزهر في مصر، والقيروان، والنجف، وقم، وخراسان، وغيرها من البلاد الإسلاميّة إضافة إلى المسجدين العريقين الشريفين: المسجد الحرام بمكّة المكرّمة، والمسجد النبويّ في المدينة المنوّرة، وكذلك المسجد الأقصى في القدس الشريف، والجامع الكبير في دمشق، فكلّ هذه المساجد قد قامت بدورها في الحفاظ على الشريعة الإسلاميّة، وحماية اللغة العربيّة، وتخرّج منها العلماء والفقهاء، وانطلقت منها جحافل الجيوش الإسلاميّة للجهاد في سبيل الله.

ولكن الاستعمار الأجنبيّ وقد أدرك سرّ قوة المسلمين بارتباطهم الوثيق بدور العبادة، وصلة الدّين القويّة بمجريات حياتهم العمليّة، فأخذ يكيد الدسائس، ويدبر المؤامرات، ويحيك في الظلام الخطط العدوانيّة لضرب القوة الإسلاميّة، وذلك عن طريق فصل الدّين عن حياة المسلمين، وتفتيت الوحدة الإسلاميّة بإثارة النزعات الطائفيّة، وإشعال الفتن القوميّة، وزرع المراكز التبشيريّة عن طريق الإرساليّات، والكنائس، والمدارس للأقليّات المسيحيّة، وفتح الباب أمّام أبناء المسلمين للدخول والدراسة فيها بحجّة مكافحة الأميّة، ونشر الثقافة والمعرفة الإنسانيّة، ولم يكتفِ المستعمرون بذلك بل ومن أجل تأمين السيطرة الفعليّة لهم على مقدّرات الأمّة الإسلاميّة حاولوا إيجاد مراكز للنفوذ السياسيّ، والعسكريّ في بعض المناطق بتسهيل من بعض حكام المسلمين كما حصل ذلك في الهند، ومصر، وإيران، وبلاد المغرب، فما كان من هؤلاء الحكام إلّا أنْ انفصلوا عن شعوبهم، وارتبطوا بالأجنبيّ من أجل تثبيت عروشهم، واستعدوهم على ضرب الدعوات الإصلاحيّة، وفرض الرقابة على التجمعات الشعبيّة والتي كانت تتّخذ من المساجد أمّاكن لتواجدها، فامتدّت اليد الاستعماريّة إلى حدّ الهيمنة على المراكز الدينيّة، وتحديد دروها وتقييد عملها، وحصره في القضايا العباديّة، وأمر الخطباء وأئمة المساجد بضرورة الالتزام بالأحكام العرفيّة التي تحتم عليهم عدم الخوض في المسائل المصيريّة، والقضايا السياسيّة، وأنْ ليس من شأن رجال الدّين التعرّض للمسائل السياسيّة، واستطاع الاستعمار في كثير من البلاد الإسلاميّة أنْ تكون له اليد الفعليّة في توجيه المؤسسات الدينيّة كإدارات الأوقاف خدمة لمصالحهم، ولترويج

مبادئهم، والدعاية لحكّامهم، ولم ينجُ من هذه الإجراءات التعسّفيّة سوى المساجد، والمعاهد الشيعيّة والتي ظلّت تقاوم كلّ أشكال الهيمنة الاستعماريّة في إيران، والعراق بفضل ما يؤمن به الشيعة من البُعد عن حكّام الجور، وعدم الاعتماد عليهم لتمويل المساجد، والمدارس، والهيئات الدينيّة والتي ضمنت لها الحقوق الشرعيّة - التي يدفعها الشيعة بسخاء - الاستقلال الذاتيّ عن الارتباط بالأجهزة الحاكمة، واستطاعت أنْ تبقى هذه المراكز الدينيّة في موقع القيادة للأمّة، فكان العلماء والفقهاء هم قادة الحركات الإصلاحيّة والثورات الشعبيّة والتي كان من أبرزها ثورة العشرين ضد الاحتلال الإنجليزي في العراق، والثورة الإسلاميّة الكبرى في إيران ضدّ الأسرة البهلويّة.

(٩)

معطيات الثورة الحسينيّة

الحدث الروحيّ

أيّ حدث لا يصدر عن فراغ، إذ لا بدّ لكلّ حادث من سبب يؤدّي إليه، وإلّا صار الحدث عبثًا، والأحداث التاريخيّة الاجتماعيّة بالذات تحتاج إلى أسباب تدعو إليها وهذه الأسباب عادة ما تكون مرتبطة بالنتائج التي يتمخّض عنها الصراع، حيث تكون هذه النتائج مرتبطة بدرجة ذلك الحدث من حيث قوّة التأثير، فتارة تكون قوة الحدث نسبية، وكذا آثارها تكون نسبيّة ومحدودة، وتارة تكون قوّة الحدث قويّة، فتكون آثارها ونتائجها كبيرة، وتبقى معطياتها مستمرة وخالدة، وهي لا تكون كذلك إلّا إذا كانت لحدث تأريخي ذي أبعاد سياسيّة واجتماعيّة مبدئيّة، فكثير من الثورات التاريخية كان لها آثار سياسيّة واجتماعيّة كبيرة، لكنّها تقف عند حدّ معين من السنوات، وبعد ذلك ينتهي تأثيرها، وتصبح حدثًا في بطون التأريخ، وقصة تروى.

أمّا الشيء الذي يبقى لفترة غير محدودة، فهو ذلك الحدث الذي يرفع شعارات إصلاحيّة، ويفجّره قائده مرتبطًا بارتباطات روحيّة.

من هذا القبيل الثورة الحسينيّة، فهي ثورة عقائديّة ارتبطت بأهداف، ومبادئ إسلاميّة، وظلّ تأثيرها باقيًا ومستمرًا إلى الآن، والسبب الذي

جعل لهذه الثورة هذا البروز من بين الثورات هو انتماؤها الحقيقيّ والراسخ بأصول الإسلام ومبادئه، فهي ثورة تجديد للقيم الإسلاميّة، وتصحيح لمسار الحكومة الإسلاميّة.

العودة إلى جذور الإسلام

إنّ الأهداف التي أعلنها مفجّر هذه الثورة، وقائدها الإمام الحسين عليه السلام كانت تتمثل في العودة إلى أصول الإسلام الحقيقيّة بعد أنْ حصل لها التحريف والتزييف على يد بني أميّة، ومن أجل ألا يترسّخ هذا الانحراف، ويتأصّل في أعماق شعور الأمّة لابدّ من إحداث هزّة عنيفة تنبّه المجتمع إلى غرابة هذا الانحراف، وبُعده عن المبادئ الإسلاميّة العالية التي أرسى دعائمها النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فقد قال الإمام الحسين عليه السلام في بيان سبب نهضته: (**أنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا... وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي...**)[١].

والإصلاح لا يكون إلّا حيث يكون هناك فساد، وهذا الفساد يكون قد بلغ مبلغًا لا يمكن السكوت عليه، أو التغاضي عنه، فإنّه - الفساد - يمكن أنْ يؤدّي إلى تقويض الدّين، ومحو معالمه، (**ألا وإن السنة قد أُميتتْ، وإن البدعة قد أُحييت**)[٢].

---

(١) بحار الأنوار٤٤/ ٣٢٩، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، تحقيق/ محمد باقر البهبودي، مؤسسة الوفاءن بيروت- لبنان.

(٢) لواعج الأشجان، ص٢٩، السيد محسن الأمين، سنة الطبع١٢٢١، منشورات مكتبة بصيرتي، قم- إيران.

والحسين عليه السلام وهو شاهد على عصره بمقتضى مضمون الآية الكريمة والتي يكون الحسين عليه السلام أظهر أفرادها، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]، يدرك مدى الفساد الذي واجهه والذي لو سكت عنه لأدّى ذلك إلى محو الإسلام، وتفويض أركانه، وذلك لأنّ قوام الإسلام يعتمد على اقتفاء الرسول صلى الله عليه وآله، واتّباع سنّته، والعمل بما جاء به قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]، والسُنّة في مقابل البدعة، والبدع هي المستحدثات التي يكون انتشارها سببًا في تعطيل السنّة كما في الحديث: (**ما أحد ابتدع بدعة إلّا ترك بها سنّة**)[4].

والسُنّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: (**السُنَة سُنّتان، سُنَة في فريضة الأخذ بها هدى وتركها ضلالة، وسُنّة في غير فريضة الأخذ بها فضيلة، وتركها إلى غير خطيئة**)[5].

أمّا البدعة، فهي كما قال عنها أمير المؤمنين عليه السلام كذلك: (**إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولّى فيها رجال رجالًا، فلو أنّ الباطل خلص لم يخفَ على ذي حجى، ولو أنّ الحقّ خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا**

---

(١) البقرة:١٤٢.
(٢) البقرة:١٤٢.
(٣). الأحزاب:٢١.
(٤) الكافي ١/٥٨، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة١٣٦٣ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران
(٥) الكافي ١/٧١، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة١٣٦٣ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان فيجيئان معًا، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)[١].

وحينما تصل حالة الابتداع، والخروج عن الدين حدًّا يمكن أنْ يعّطل السُنن الشرعيّة والتي قام الإسلام من أجل إرسائها، وترسيخها في المجتمع، فإنّ المسلم يكون من واجبه الشرعيّ مواجهة تلك البدع، وإنهائها، والقضاء عليها، فهذا رسول الله ﷺ يقول: **(إذا ظهرت البدع في أمتي، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل، فعليه لعنة الله)**[٢]، ذلك لأنّ حفظ الدّين وحمايته من أهم الواجبات الشرعيّة التي يتحمّلها المسلم انطلاقًا من مبدأ المسؤوليّة العامة الذي يشير إليه الحديث الشريف والقائل: **(كلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته)**[٣]، وكذا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المأخوذ على كلّ مسلم، بصريح الآية الكريمة: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٤]، وكلّنا يعرف مدى الانحراف الذي آلت إليه الأمور بعد تولّي يزيد للحكم، فإنّ ذلك كان غاية في الانحراف عن المبادئ الإسلاميّة، لأنّ صفاته وسلوكيّته المستهترة سلبت منه أدنى صفات الصلاح التي يمكنه من خلالها قيادة الأمّة، فيزيد رجل فاسق، فاجر، شارب للخمر، قاتل للنفس المحترمة.

---

(١) الكافي ١/ ٥٤، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة ١٣٦٣ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

(٢) الكافي ١/ ٥٤، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة ١٣٦٣ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

(٣) بحار الأنوار ٧٢/ ٣٨، العلامة المجلسي، الطبعة الثالثة المصححة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

إذًا السماح لشخص هذه صفاته يعني بالضرورة القضاء على الإسلام، وهو ما أعلنه الإمام الحسين عليه السلام صراحة بقوله: (**على الإسلام السلام إذ ابتليت الأمّة براع مثل يزيد**)[١].

فسكوت الحسين عليه السلام، ومبايعته ليزيد سيُعتبر مساهمة منه في هدم الإسلام، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله يقول كما في الكافي: (**من أتى ذا بدعة فعظمه فإنّما يسعى في هدم الإسلام**)[٢]، ومِثل هذا لا يكون من الحسين عليه السلام، لأنّه سبط الرسول صلى الله عليه وآله المؤسّس، وابن عليٍّ عليه السلام الباني والمشيّد لهذا الكيان الشامخ، الذي بُذلت في سبيله المُهج، وسُفكت من أجل إقامته الدماء، وأُزهقت الأرواح، فمن المستحيل أنْ يقبل سليل النبوة ضياع هذه المكاسب، وفوات هذه الشعائر الإلهيّة، فهو من أهل البيت عليهم السلام الذي عهد إليهم الرسول صلى الله عليه وآله أمر المحافظة على الإسلام، ومسؤوليّة حمايته، فيقول صلى الله عليه وآله: (**إنّ عند كلّ بدعة تكون من بعدي يكاد بها الإيمان وليًّا من أهل بيتي موكّلا به، يذّب عنه، ينطق بإلهام من الله، ويعلن الحقّ، وينوّره، ويرد كيد الكائدين يُعبّر عن الضعفاء**)[٣].

لذلك أقدم الإمام الحسين عليه السلام على حركته، وأقدم على مقاومة يزيد وهو عالم بالمصير الذي ينتهي إليه، وعارف بالعواقب التي تترّتب على خروجه، غير مبالٍ بخذلان صديقه، ولا مكترث بقوّة عدوّه، بل هو ماضٍ في سبيل تحقيق غرضه.

---

(١) بحار الأنوار٤٤/٢٢٦، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

(٢) الكافي١/ ٥٤، الطبعة الخامسة١٣٦٢ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

(٢) الكافي١/ ٥٤، الطبعة الخامسة١٣٦٢ش، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران.

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقًّا وجاهد مسلما

ويقول: (**إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برمًا**)[1].

ولم تكن تلك التضحية، وذلك البذل الذي أعطاه الإمام الحسينعليه السلام، ليذهب هدرًا دونما نتيجة، بل كان يدرك النتائج الايجابيّة التي سوف تثمر عنها تلك التضحية، منها ما هو قريب ومباشر، ومنها ما هو بعيد.

تحريك الضمير الإسلاميّ

أمّا الأثر المباشر لثورته، فقد كان تحريك الضمير الإسلاميّ، وتحسيسه بالخطر الداهم الذي يعيشه، وتحميله مسؤوليّة التغيير الذي يجب عليه القيام به، وأنّه يدرك ذلك، فإنّ الأمويين ماضون في تنفيذ مخطّطهم الذي يرمي إلى محو الصورة الإسلاميّة، وتحويل الدولة إلى إمبراطوريّة أمويّة خصوصًا وإنّنا نعلم كيف استطاع الأمويّون تخدير النّاس بشكل شلّ حركتهم، وجعلهم يتهيّبون من القيام بأيّ عمل يعارض سياسة الحاكمين خوفًا على أنفسهم، وممّا لا شكّ فيه أنّ لهذا السكوت نتائج، وعواقب سيّئة تنذر بالخطر للمبادئ الإسلاميّة الحقّة، فكان تحريك الإمام الحسينعليه السلام بمثابة المحرّك لذلك الشعور العام، والمنبّه لتلك النفوس، والميقظ لتلك الضمائر.

ولقد كان تحرّك الإمام الحسينعليه السلام في وقته وظرفه المناسبين، وذلك لما تعرفه من أنّ الوضع السياسيّ للأمّة من قِبلِ يزيد وإنْ كان

---

(١) لواعج الأشجان، ص١٠١، السيد محسن الأمين، سنة الطبع١٣٣١، منشورات مكتبة بصيرتي، قم- إيران.

مخالفًا لمبادىء الإسلام ولصورته الصحيحة، إلّا أنّ المظاهر الإسلاميّة، والشكليّات الدينيّة كانت تُراعى بعض المراعاة، وكان جمهور النّاس ينظرون لذلك المتربِّع على كرسيّ الخلافة أنّه جدير به لصحبته لرسول الله ﷺ، ولممارسته لبعض الشعائر الدينيّة - ولو ظاهرًا -، أمّا الوضع السياسيّ بعد تولّي يزيد، فإنّه جنوح خطير عن جادّة الإسلام إلى حيث الهاوية المردية، فلم يكن الحلّ بالسكوت على هذا الوضع الخطير أمرًا جائزًا وإنّما الوقوف والإمساك بيد هذا الشخص حتى لا يقضي على البقيّة الباقية من المعالم الإسلاميّة، ولم يكن لأحد الجرأة والشجاعة على القيام بهذا العمل الإنقاذي سوى الإمام الحسين عليه السلام مع علمه بما يكلّفه ذلك العمل من ثمن باهظ، وهو بذل حياته الشريفة؛ لذلك فإنّه ليس من حقّ أيّ فرد أنْ يوجِّه اللوم والنقد للحسين عليه السلام واتّهامه بسوء تقديره للعاقبة، وبأنّه ألقى بنفسه للتهلكة؛ لأنّ الحسين عليه السلام أقدم على العمل وهو يعلم نتائجه، إذ قال: (**كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء**)[1]. ولقد أصاب الشاعر حين قال بهذا الشأن:

فما رأى السبط للدين الحنيف شفا	**إلّا إذا دمه في كربلاء سفكا**
وما سمعنا مريضًا لا علاج له	**إلّا بنفس مداويه إذا هلكا**

ولا شكّ أنّ مثل هذا العمل الاستشهادي من شخص غير عادي كالحسين عليه السلام من شأنه أنْ يحرّك السكون المطبق، ويفجّر الأرض الهادئة من تحت أقدام الأمويين، ويجعل من تلك الدماء نارًا متأجِّجة تأكل في عروش الحاكمين، وأنوارًا تضيء دروب السالكين، وتبعث الأمل في نفوس الخائفين، وهذا ما حصل بالفعل بعد ثورة الحسين عليه السلام من تتابع الثورات والحركات الثوريّة ضدّ الحكم الأمويّ حتى عجّلت عليه بالنهاية.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/٢٦٧، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

سلب الشرعيّة عن النظام الأمويّ

ثمة ناحية مهمة تعتبر من معطيات الثورة الحسينيّة غير المباشرة، وهي أنّ الوضع التشريعيّ للأمّة -والمقصود بالأمّة هنا الجمهور من غير المرتبطين بإمامة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يرون في آراء الصحابة مصادر للفقه والتشريع، وحيث كان الخلفاء هم من هذه الفئة- قد كانت اجتهاداتهم، وفتاواهم تعتبر قانونًا يجب تطبيقه، ولا يجوز الاعتراض عليه، لأنّه صادر من السلطة العليا، وكان يمكن لهذا الشعور بالتسليم والقبول بهذه التشريعات دونما معارضة حتى ولو كانت تلك الأحكام تتعارض مع النّصوص القرآنيّة، وما ثبت من السنّة النبويّة أنْ تستمر لدى كلّ مَن يتسلّم زمام السلطة والخلافة استنادًا لمبدأ وجوب الطاعة لولاة الأمر.

ولكن قيام الإمام الحسين عليه السلام ورفضه لبيعة يزيد أفقد الحكم الأمويّ الشرعيّة، وكذا من جاء بعده من حكّام تلك السلطة التشريعيّة، ولم يعد لآراء الخليفة ذلك الاحترام والقوّة كما كانت آراء وفتاوى الخلفاء الراشدين، وإنّما نظرت الأمّة إلى هؤلاء الحكّام باعتبارهم ملوكًا وسلاطين، وما كان ذلك ليحصل لولا ثورة الحسين عليه السلام، بل لأصبحت آراؤهم، واقتراحاتهم، وانحرافاتهم سُنّة متّبعه للمسلمين، وهذا ما عناه الإمام الحسين عليه السلام من قوله: (**فإنّ السنة قد أميتت، وأنّ البدعة قد أحييت**)، ولا يعني ذلك أنْ يكون شاهدًا على نزاهة الفقه في ظلّ هؤلاء الحكّام، ذلك لأنّ هؤلاء الخلفاء مارسوا ضغوطًا سياسيّة مختلفة، لكي يجعلوا من الفقهاء، ورواة الحديث آلة لتحقيق أهدافهم وأغراضهم، وقد

تمكّنوا بواسطة توافر عدد من باع نفسه وضميره؛ لتحقيق هذا الغرض والذي جاء بكثير من الأحكام موافقة لرغبة الحكّام كما جاء ذلك في تبرير سلطة الحاكم الجائر، فهذا واحد منهم يقول: (**ولا ينعزل الإمام بالفسق - أيّ الخروج على طاعة الله تعالى -، والجور - أيّ الظلم على عبادة الله تعالى**)[1]، لأنّ الفاسق من أهل الولاية عند أبي حنيفة!، وقد علّل ذلك بأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم ولا يرون الخروج عليهم، وفي مقابل ذلك نجد أنّ الفقه الإماميّ أخذ يحصّن نفسه خشية الوقوع تحت تأثير فقه العامة - وهو الذي له السيطرة، والنفوذ يومذاك - بحصر الأخذ بالأحكام الشرعيّة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومخالفة ما ورد عن العامة عند التعارض بين النّصوص، وما ذلك إلّا لشيوع الوضع عندهم بشكل أفقد الثقة بما يصدر عنهم من روايات وأحاديث.

شدّ النّاس إلى فكرة الإمامة

وثمّة عطاء آخر من معطيات ثورة الإمام الحسين وهو أهمّها وهو شدّ الناس نحو فكرة الإمامة، وأحقيّة أهل البيت عليهم السلام بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، ومعلوم أنّ فكرة التشيّع قد وجدت قبل ذلك، بل هي موجودة من زمان النّبيّ صلى الله عليه وآله إلّا أنّها لم تتبلور تبلورًا واضحًا إلّا بعد مقتل الحسين عليه السلام حيث نجد أنّ جمهور الصحابة قد انحازوا إلى مبدأ الشورى وتركوا النّصّ، حيث لم يكن مع عليٍّ عليه السلام من الأتباع إلّا قليل أمثال سلمان الفارسيّ، وأبي ذر الغفاريّ، والمقداد، وعمار بن ياسر، ومثل

---

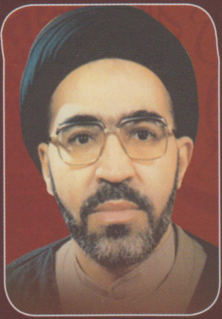
(1) تحفة الأحوذي: ٥/ ٢٩٨، المباركفوري: الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان

هؤلاء لم يكن بالمقدور النهوض معهم ومواجهة الفئة المتسلّطة، واستمر الحال على ذلك حتى عهد أمير المؤمنينعليه السلام والذي اختير للخلافة بنفس المقاييس التي اختير بها الخلفاء من قبله، بمعنى أنّه لم يكن على أساس مبدأ النصّ، وكذلك الحال بالنسبة للإمام الحسنعليه السلام إلّا أنّه بعد مقتل الحسينعليه السلام حصل تغيير نوعيّ في مسألة التفاف الشيعة حول الأئمة، فهي لم تكن مجرّد عاطفة، بل إنّ ذلك ارتبط باستعداد نفسيّ وروحيّ للمواجهة الدمويّة مع الحكّام والمتغلّبين كما حصل في ثورة التوّابين. كلّ ذلك كان أثرًا مباشرًا لثورة الحسينعليه السلام.

بقاء روح الارتباط للآل عليهم السلام

وكان من معطيات هذه الثورة أنْ بقيت روح الإتبّاع والارتباط بأهل البيت عليهم السلام عميقة الجذور في نفوس الشيعة الذين بدؤوا يتكتّلون كفرقة متميّزة بعقائدها وأحكامها حول الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وإلى اليوم نجد أنّ هذه الطائفة قد تنامت عددًا وعدّة رغم الضغوط النفسيّة، والسياسيّة، واستطاع أتباعها أنْ يتخطّوا هذه العقبات، ويحافظوا على هويّتهم، ويمدّدوا شخصيّتهم، ونحن لا نشكّ في أنّ بقاء التشيّع، واستمراره، وانتشاره بين الطبقات العامة للمجتمع يعود فضله إلى الشعائر الحسينيّة من تعازٍ، ومواكب، وسوى ذلك ممّا له أبلغ الأثر في تعميق روح الولاء والمحبة لأهل البيت عليهم السلام، والسخط والنقمة على الظالمين.

إنّ شخصية كلّ قائد تظهر من خلال معالجته للمواقف الحرجة التي تواجهه بحكمة وتدبر، لأنّ هذه المواقف تعدّ اختبارًا لمقدرته، وامتحانًا لقوّة شخصيّته، وطبيعي أنْ يلجأ القائد إلى كلّ وسيلة تكسبه الموقف، ويحرز بها النّصر، والقائد الرساليّ هو الذي يلتزم في طريقة حلّه للأزمات، ومواجهته للتحدّيات المبادئ التي يعتقدها، ولا يتخلّى عنها مهما كلّفه ذلك من تضحيات، ذلك لأنّه إنّما يجاهد من أجل ترسيخ تلك المبادئ، فمن الطبيعيّ أنْ يتجنّب كلّ عمل يتنافى وطبيعة ذلك المبدأ الذي يستند إليه، ويجعل منه المثل الأعلى، وهو بعمله هذا يدعم الأساس الذي تقوم عليه تلك المبادئ والقيم، ويثبّت أركانها، ويقوّي دعائمها.



نرحب بتواصلكم معنا، وبكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم :

مكتب سماحة العلّامة السيّد عبد الله الغريفي - اللجنة الثقافية

هاتف: +٩٧٣-١٧٤٠٣١٣٤ / فاكس: +٩٧٣-١٧٤٠٣١٣٠

الموقع الإلكتروني: www.alghuraifi.org

البريد الإلكتروني: lajna@alghuraifi.org

السهلة الشماليّة - مملكة البحرين

Al-ghuraifi